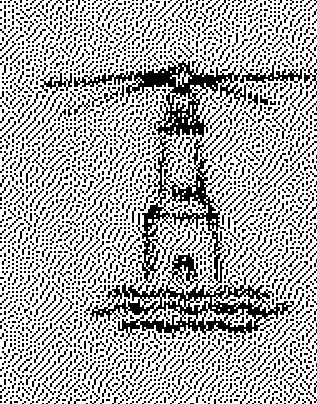
اقرأ

الدكتور حسن الأشموني

التعبير الروحي في بناء المجتمع



دار المعارف بمصر

التعبئة الروحية في بناء المجتمع

الدكتور حسن الأشموني

التعبئة الروحية في بناء المجتمع

اقرأ ٢٢٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٨ – ديسمبر سنة ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

« نحن العرب . . . نحن المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة من العالم » .

« نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » .

« ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله » .

« وألا تزر وازرة وزر أخرى » .

« ونؤمن بأن لكل فرد فى كل جماعة كياناً فى ذاته : وكياناً فى أهله ، وكياناً فى قوميته العامة وفى بلده . . . »

« ونؤمن إلى كل ذلك بالأخوة الإنسانية وبالتكافل الاجتماعى وبالإيثار القائم على الاختبار لتوثيق الروابط الإنسانية » .

« ونؤمن بأن لكل فرد فى الدولة حقّاً — وعليه واجباً يكافئ هذا الحق » .

« وأن على الدولة لكل فرد فيها واجباً، ولها عليه حقّاً يكافئ هذا الواجب » .

« فهى تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ، ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد . . . »

« إننا نؤكد إيماننا بديننا الذى ندين الله عليه . ونترسم دستوره فيما نعمل بأنفسنا ولقومنا » .

« جمال عبد الناصر »

١

تمهيد

ثار الجدل حيناً — ولا يزال يثور — حول قيمة الفلسفة ، وما عسى أن تؤديه للعالم الذى لم يصبح فيه مجال إلا للعلم بكل ما ينطوى عليه من قدرات وكل ما يستطيع أن يقدمه للبشرية من وسائل تمكنها من السيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها لفائدتها ، وتوجيهها الوجهة التى تخدم مصالحها وتحقق لها الرفاهية والقوة والرخاء . . .

ماذا تستطيع أن تقدمه الفلسفة للبشرية التى لم تعد تؤمن إلا بالنظريات التى لا تحتمل الجدل ، والتى ترى فى نتائجها مزيداً من القوة ومزيداً من الجاه والنفوذ . . . فى حين أن الفلاسفة لم يتفقوا على رأى إلا عادوا فناقضوه ، ولم يخرجوا نظرية إلا ونهض أفراد من بينهم ليعارضوها ، ويأتوا بغيرها . . . وهم فى كل الأحوال لم يقدموا أو يؤخروا فى سير الأمور ، ولم تؤد أفكارهم إلى اكتشاف مادة جديدة أو اختراع آلة أو إطلاق صاروخ يجوب أجواز الفضاء أو إضافة حجر جديد — أيًّا كان نوعه — فى صرح الأوطان . . .

ووقف الفلاسفة فى وجه التيارات التى تقلل من شأنهم ، والتى تكاد تقضى على كل خفقة خفقها تفكيرهم خلال القرون

الطويلة بمعارضتها لمناهجهم فى البحث والتفكير ، وتهوينها من قيمة النتائج التى يصلون إليها ، ونعيها عليهم اختلافهم وجدلهم . . . الأمر الذى جعلهم يظهرون كما لو كانوا يعيشون فى حلقة مفرغة لا يصلون منها إلى هدف أو يبلغون غاية .

وكان ردهم أن المعرفة ليست وسيلة لاكتساب القدرة فحسب ، وليست غاية للسيطرة على الموجودات فقط ، وإلا لتحولت الدنيا إلى آلة كبيرة تهدد بالأنانية والجشع والقلق ، ولكن المعرفة أولا وقبل كل شىء وسيلة للنمو الداخلى . . . وسيلة لغرس القيم وخلق الرجال ، وهو الدور الذى تقوم به الفلسفة منذ وجدت . إنها بمعنى آخر احتجاج العقل ضد تيار المدنية الجارف ، تحمل فى طياتها خفقات الضمير الإنسانى الذى تراكم عليه صدأ المدنية الجوفاء ، وتقوم فى هذا العالم المضطرب مقام صمام الأمن الذى يقيه من الانفجار . . .

وإذا كان هذا هو موقف الفلسفة ، فما أحرى التصوف أن يكون احتجاجاً على المادة وعلى العقل معاً ! !

إن لغته ليست وليدة المادة . . . ووسيلته ليست قوى العقل . . . ولكنه نزعة روحية خالصة لا تهدف شيئاً إلا الوصول إلى الله . . . إنه مناجاة القلب الذى صفا من كل الشوائب ، ومحادثة النفس التى دقت ، وتخلصت من كل ما يربطها بالدنيا ومظاهرها ، فأصبحت طيفاً رقيقاً ، يسبح بأجنحة من نور فى سماء اليقين . . . فلا رجس ولا دنس ولا

إثم ولا خطيئة ، ولا رغبة ولا هوى . . . بل لا شيء هناك غير التأمل العميق في قدرة الخالق . . . والهيام في حب الله . . . والتحليق بالروح — وقد صفت ودقت — في عالم الفيض والإلهام ، حيث النور والملائكة . . .

وهذه الغاية تنطوى على صراع بين الجسم والنفس . . . صراع يجب أن تكون الغلبة فيه للنفس دائماً . . . فلا سبيل إلى مناجاة القلب ومحادثة الروح إلا بالتغلب على شهوات البدن... وتخليصه من أدران اللذات والأهواء . . . فإن الشر كله قد جعل في بيت . . . وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا . وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ، فالأنس بالله صفاء القلب مع الله ، والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله . ولا ينال أحد درجة الصالحين حتى يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة ، ويغلق باب العز ويفتح باب الذل ، ويغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد ، ويغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، ويغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، ويغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

انظر إلى بشر الحافي — أحد الصوفيين — ، وقد رأى شيخاً من شيوخ الصوفية يرتعد من البرد في يوم بارد فقال : —

قطع الليالى مع الأيام فى خلق ... والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بى من أن يقال غداً : ... إنى التمست الغنى من كف مختلق

قالوا : رضيت بذا ؟ قلت القنوع غنى ... ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله فى عسرى وفى يسرى ... فلست أسلك إلا أوضح الطرق

فالتصوف إذن ينطوى على ناحية عملية ، تدفع إلى نوع معين من السلوك هو السبيل إلى الله . هذه الناحية العملية تبدو فيما يأخذ به الصوفيون أنفسهم من زهد وتقشف وترفع عن كل الدنايا .

ويخطر للقارئ المدقق هنا سؤال :

ـ ألا يستطيع العقل أن يصل إلى هذه الغاية ؟

وتحضرنا هذه القصة . . .

التقى ابن رشد[1] بمحيي الدين بن عربي[2] فى مطلع

---

(١) ابن رشد الفيلسوف الأندلسى الكبير (١١٩٢ م) كرس حياته للدفاع عن الفلسفة ، وتفنيد تهمة اختلافها مع أصول الإسلام . ويطلق عليه اسم « الشارح العظيم » لما بذله من جهد فى شرح كتب أرسطو وتنقيتها مما دخل عليها من تحريف . وقد رد على النقد المرير الذى وجهه الغزالى إلى الفلسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » بكتاب آخر هو « تهافت التهافت » .

ومن أشهر كتبه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتاب « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وتعتبر الترجمات اللاتينية لكتبه من أهم مصادرنا فى معرفة هذه الكتب ، إذ أن معظم الأصول العربية لمؤلفاته قد أبيدت عن آخرها .

(٢) محمد بن على الحاتمى ، ويلقب بمحيي الدين . ولد بالأندلس (٥٦٠ هـ) وتوفى بدمشق سنة (٦٣٨ هـ) . تعرف فى حياته بكثير من الرجال =

شبابه، فسأله ابن رشد : — هل القمة التى وصل إليها الفلاسفة بالعقل والفكر هى القمة التى وصل إليها المتصوفة بالتصوف والتجرد والذكر ؟

فقال محيي الدين بن عربى : — نعم ، ولا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح . نعم لأن العقل قد يهدى إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون وعجائبه وآياته . . . ولكن العقل المجرد مع وصوله إلى تلك القمة ينحدر وينزلق ويضل فى المتشابهات وفى تفهم ذات الله سبحانه . والعقل المجرد ليس له من القيود ما يعصمه من شطحاته التى تنبثق حول المعارف ، فتصيب حيناً ، وتخطئ أحياناً .

لذلك ، فإن بين نعم ولا — كما قال محيي الدين بن عربى — تطير الأرواح . ! !

وعلى الرغم من أن الفلسفة لها تأثيرها الواضح الذى لا يمكن إنكاره أو التقايل من شأنه فى المعارف الإنسانية والعلوم النظرية ، إلا أنها لم تستطع أن تصل إلى اليقين فى الإلـٰهيات . . . لأن ما وراء الطبيعة فوق مدارك العقل ولا سبيل إلى إدراكه إلا بالوحى والإلهام .

=وقف على كثير من الآراء والأفكار مما كان له أكبر الأثر فى آرائه فى الفقه والتصوف . قضى عمره كله فى محاورة العقل ومناجاة الروح وله أشعار كثيرة فى الحب الإلهى . ومن أهم مؤلفاته : شرح ترجمان الأشواق ، والفتوحات .

ويؤيد الكثيرون من المفكرين المحدثين والمعاصرين ـ حتى الماديين منهم ـ هذه الحقيقة . . .

ولعل من الغريب أن نجد عالماً كإنشتين يقول : « إن عقيدتى هى إعجاب كبير بالروح السامية غير المحدودة التى تعبر عن نفسها فى الجزئيات البسيطة والتى لا نستطيع أن ندركها عن طريق عقولنا الضعيفة الواهنة . »

وقد ذهب « باسكال[1] » إلى مثل هذا حين قال بأن للقلب عقولاً لا يعرفها العقل . وإلى مثل هذا ذهب أيضاً « برجسون » حين قال بأن هناك طريقين للمعرفة مختلفين جداً : الأول عبارة عن الإحاطة بالموضوع ، والثانى عبارة عن النفاذ إلى صميمه . والمعرفة الأولى تقف عند النسبى ، وأداتها العقل ، أما المعرفة « الثانية » فهى تصل إلى المطلق وأداتها القلب .

ويقول « هكسلى » إن من يغفل الروح وما تفيض به من إلهامات ، ملقياً كل الأهمية على العقل وحده ، إنما ـ على الرغم مما قد يكون له من حصافة الرأى وجلال العلم ـ يعيش فى حظيرة واحدة مع غيره من أنواع الحيوان . وذهب « فرويد » إلى

---

(١) باسكال عبقرى فرنسى نادر تعشق العلوم إلى حد الهيام والوله ـ وقد تمكن وهو فى الثانية عشرة من استنباط قضايا « دقليدس » الهندسية ـ كما استنبط قواعد طبيعية أخرى واخترع آلة حسابية وعمره ثمانية عشرة عاماً ـ عمل على نشر محاسن المسيحية وهاجم اليسوعيين و « الجانسنيت » الذين أنكروا الاختيار بالقضاء والقدر .

أن هناك معرفة تنشأ عن غيبة وعى العقل ، فحين يغيب العقل الواعى يكون هناك مجال لعمل قوة أخرى ليست هى العقل المستيقظ .

ويقول « أوليفر لودج » : إن ارتباط الإنسان بالمادة ليس هو الجوهر ، فإن صلته بالروح هى الأساس . . . ومن يظن غير ذلك فإنه يسىء إلى نفسه ، ويخطئ فى حق الله ، وفى حق الروح البشرية . إن الناس جميعاً بلا شك مخلوقات روحية طمست المادة من أمام أعينهم نور الحقيقة الوهاج . ولكن . . . كيف السبيل إلى تقييم إدراكات الروح ، وفيوضات القلب ؟... وما هو الضمان الذى يجعلنا نتحقق من صحتها كما هو الحال فى شتى ضروب المعرفة الأخرى حسية كانت أم عقلية ؟ . . .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن هذا النوع من المعرفة قد يكون غير يقينى . . . أو قد يعز على الأقل إثباته بالبراهين القطعية التى يتقبلها الآخرون . . . إلا أنه على أية حال مبعث طمأنينة وهدوء . . .

ذلك لأنه معرفة شخصية مباشرة . . . والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب .

وكم يجهد الإنسان نفسه فى صوغ الأقيسة وإقامة البراهين لإثبات أمر ما ، دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه . . .[1]

---

(١) فى الفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم مدكور ص ٣١ .

ويعبر الصوفيون عن ذلك فى عبارات تفيض رضاً وسكينة . . . فيقول عبد الله بن محمد الخراز الرازى . « أحسن العبيد حالا من أبصر نعم الله عليه بأن أهـّله لمعرفته ، وأذن له فى قربه ، وأباح له سبيل مناجاته ، وخاطبه على لسان أعز السفراء محمد صلى الله عليه وسلم ، وعرف تقصيره عن القيام بمواجب أداء شكره ، إذ شكره يستوجب شكراً إلى ما لا نهاية . . . »

ويقول أبو حمزة الخراسانى : « من خصه الله تعالى بنظرة شفقة فإن تلك النظرة تنزله منازل أهل السعادة ، وتزينه بالصدق ظاهراً وباطناً . . . »

فالتجربة الصوفية تجربة شخصية لا تخضع لأى نوع من القياس أو البرهان ولا سبيل إلى وصفها فإن الحروف والألفاظ تعجز عن التعبير عنها وإيفائها حقها من الوضوح والبيان . وحسبها ما تشيعه فى كيان أصحابها من رضا وسعادة ، وما تنزله على نفوسهم من طمأنينة وسكينة . وهى وإن كانت تقف وسط مظاهر التقدم العلمى والفكرى كنقطة احتجاج على ارتماء الناس فى كل مكان بين أحضان المادة إلا أنها يمكن بشىء من التطوير فى مفهومها أن تكون أهم عوامل تكتيل القوى نحو المحبة والسلام ، ونشر ألوية العدالة والمساواة بين كافة الشعوب ، بل نحن لا نجانب الصدق إن قلنا إن التصوف يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها . فليس

من شك فى أن بناء المجتمع بناءً قويًّا متيناً عزيز الجانب يرجع إلى مدى ما يكون لأفراده من صفاء النفوس ، ومتانة الخلق ، واستعداد للتضحية وإنكار الذات . . . وهى كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها ويروضون مريديهم عليها . وهكذا تستطيع الحياة الروحية أن تسلك طريقها إلى المشاركة فى مطالب الحياة اليومية ، فتؤدى إلى تدعيم أركان المجتمع . . . وتحقيق خيره ، بدلا من أن تكون دافعاً إلى العزلة والعزوف عن الدنيا . . . فإذا راض كل فرد من أفراد المجتمع نفسه على أن يخلد فى تصرفاته إلى الواقع والحقيقة ، وأن يقف فكره لخير المجتمع الذى يعيش فيه مستهدفاً فى ذلك المثل العليا على أساس من شخصيته وعلى أساس ما تلقاه من الآباء والأجداد من الفضائل ، ونبذ ما خلفه الماضى من العواصف والترهات . . . كان له فى سلوكه على هذا النحو معيناً لا ينضب وينبوعاً لا ينفد يستطيع أن يزود مجتمعه بالقوى المعنوية التى تسرى فى نفوس الناس وقلوبهم بالإيمان الثابت والعقيدة الراسخة .

ومن هنا يبرز دور الشباب بالنسبة للمجتمع العربى الكبير . . . فإن أول واجباتهم أن يكونوا بالروح والنفس عرباً فى دخيلة أنفسهم ، وأن يتخذوا مثلهم العليا من آداب العرب وسياساتهم الدنيوية . . . فإنهم متى تحلوا بهذه الفضائل جميعاً ، كانوا أحراراً . . . شعارهم فى الحياة المحبة والإخلاص للعروبة ،

والتفانى فى الدفاع عن الحرية والسلام فى كل مكان .

ألا . . . ما أروع شوقى حين قال يصف دور الشباب فى المجتمع . . .

وتلك الأواعى بإيمانهم	حقائب فيهـا الغد المختبى
ففيهـا الذى إن يقم لا يعد	من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنـار	وفيهـا التبيع وفيها النبى
وفيهـا المؤخر خلف الزحام	وفيها المقـدم فى الموكب

وكل نهضة فى الوجود تستهدف النمو والاستقرار ، ولكنها لكى تخلف آثاراً بعيدة المدى تؤتى ثماراً صالحة للإنتاج قابلة للبقاء ، لا بد لها أن تتفاعل بين أصولها ، وتتشابك ، فنمو النهضات وازدهارها كان على مر العصور رهناً بمدى ما يجرى من التفاعل والتشابك بين الأصول والفروع .

وقد عنيت الثورة حق العناية منذ قيامها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بنواح وأغراض إصلاحية لازمتها وتفرعت منها حتى أثمرت ثمرات يانعة لمسناها فى كافة ميادين الحياة ، فلم يكن نشاط الثورة قاصراً على الكفاح السياسى ومنحصراً فيه وحده ، بل إنها قد وجهته إلى الإصلاح فى كل ما رأت أنه فى حاجة إلى الإصلاح ، فأدى هذا بدوره إلى تبدل سيكولوجى ملحوظ فى نفسية الشعب ، فلقد كان القعود النفسى الذى ولده الجمود السياسى فى عهود ما قبل الثورة مثبطاً للهمم مضعفاً للإقدام ومزعزعاً للثقة ، دافعاً نفوس الشباب إلى الشك

فى قيمة التضامن والتعاون وشتى القيم الأخرى . ثم لم يلبث الوعى أن تنبه فى النفوس بعد بزوغ الفجر الجديد . . . فأصبح المواطن متفائلا شديد الرغبة فى العمل المشترك لا ينقصه الإقدام ولا تعوزه المغامرة بقلب مؤمن وعزيمة ثابتة . . . وتبين له أنه لا محل للشك فى معنى القيم الروحية وقدرتها على الصمود أمام مطالب الحياة الحاضرة .

ويصح لنا أن نسائل أنفسنا بعد هذه العجالة . . . كيف تشعبت هذه النهضة إلى النواحى الاجتماعية والثقافية . . . وهل كان لها فى هذه النواحى الإصلاحية من الأثر ما يعادل ما بلغته فى الميادين الأخرى ؟

والواقع أن يد الإصلاح إذا كانت قد امتدت فأنشأت الصناعات المختلفة وضاعفت الدخل القومى ، واهتمت بالعلوم والفنون ، وحققت أسباب العدالة الاجتماعية ، فهى قد أعادت فى نفس الوقت للشعب روحه وثقته بنفسه ، وقدرته على تحقيق هذه الأهداف . . . وليس هذا كله فى نهاية الأمر إلا مظاهر حية للحرية . . .

فالفن مثلاً فى حقيقة أمره مظهر من مظاهر الحرية ، إنه انطلاقة الإنسان الحر لاستكشاف نفسه . . . وجمال التفكير الحر أمام العالم الذى يقترب رويداً من الحقيقة الكبرى ، يتحول بهذه الحقيقة ذاتها إلى طاقة حافزة نحو مزيد من التفكير الحر . . . وهكذا يصبح العلم السلاح الأكبر فى معركة الحرية

الاقتصادية والاجتماعية ، من أجل خلق المجتمع الجديد الحر ... وفى المقدمة يسير العلماء فى المعمل والمصنع والحقل والمنجم يبحثون عن الحل للمشاكل المستعصية ويجدون الوسائل للغايات الكبرى ويقودون المجتمع الجديد إلى الآفاق التى طالما تطلعنا إليها . . .

ولم ينس المجتمع فى زحفه المقدس إلى هذه الآفاق ، أهمية الفرد فى ذاته . . . بل إنه أولى بناء الأفراد الصالحين ، وخلقهم على نحو يجعلهم عوامل خلق وبناء ، أهمية قصوى ، على أساس أنهم اللبنات التى يأخذ المجتمع منها خصائصه من حيث القوة أو الضعف ، الإقدام أو النكوص ، التحفز أو التخاذل . . . وهذا هو ما عبر عنه السيد الرئيس جمال عبد الناصر بقوله إن إقامة مصنع كبير أسهل كثيراً من خلق فرد صالح . . .

ولقد يسر القراء أن يعلموا أن الحركة الثورية قد مضت فى مشروعاتها الكبرى كما سبقت الإشارة وسارت فيها مراحل بعيدة المدى أحس بها المجتمع فيما هو مشاهد فى الجمهورية العربية من مظاهر المدنية العالمية والرقى الإنسانى الذى بدا فى مجتمعنا الجديد بذلك المظهر المحسوس والأعمال التى تتكلم عن نفسها . ومفاد ذلك لم يكن قاصراً على أن تظل الأمور فى هذه الحدود بل كان للمشاكل الاجتماعية قسط كبير من العناية والتفكير لا يقل عما بذل فى النواحى الأخرى فانصرفت جهود الدولة فى دائرة الإصلاح العام على أساس أن الشعوب لا ترقى إلا بغنى أفرادها وأخلاقهم وثقافتهم وعلى أساس أن تدعيم الاستقلال

وتثبيت بنيانه لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا على تنظيم الحياة القومية ورفع مستواها فى جميع نواحى الرقى القومى والتقدم الوطنى .

ويحاو لى أن أكرر مرة أخرى أنه لما كان الغرض الأساسى كما بينا هو رفع شأن البلاد وزيادة تماثلها حتى تتواءم أحوالها الاجتماعية فتصبح متفقة فى الحقيقة مع المظاهر السياسية والإدارية والاقتصـــادية كان من الطبيعى أن تعمل الثورة جاهدة على العناية بأحوال الأسرة والشباب من حيث إنه يمثل القوة والحمية والجهد والكفاءة . . . .

ولتحقيق هذه الغاية التى تعتبر حجراً فى بناء الاستقلال لم تنصرف الجهود عن إشعار الفرد بأنه عضو غير منفصل عن المجتمع باعتباره الخلية الأولى والتنبيه إلى أن مصلحته الشخصية يصعب تحقيقها إلا عن طريق خدمة هذا المجتمع بالإضافة إلى توجيه النظر إلى أن من أوجب الواجبات على الشباب هو أن يشترك فى تطوير المجتمع بشتى الصور بعيداً عن روح الأنانية والفردية والانعزالية التى كانت تستولى عليه وتتملك مشاعره فيما مضى من الأيام ، على أنه يحق لنا بعد المقارنة أن ندعى أن بلادنا ولله الحمد قد استيقظت وبلغت من الإصلاح الاجتماعى مبلغاً محموداً .

ولقد كان من أبلغ آثار الحركة القومية أن اتخذت الدولة لهذه الدعوة فضلا عما سبق لنا بيانه كافة الوسائل كالإذاعات بالراديو والتيليفزيون وكالنشر فى الصحف وكالوعظ فى المساجد

مما يسرى فى النفوس ويكسبها الرقة والحنان والرحمة والبعد عن الشرور والإقبال على العمل . . . وتنفيذاً لتلك السياسة الاجتماعية أخذت أجهزة الدولة وعلى الأخص أجهزة الحكم المحلى فى العمل على توجيه الشباب توجيهاً صالحاً يدفعه إلى استخدام طاقاته ويحفز فيه القدرة على العمل المثمر بصورة إيجابية من شأنها أن تزيد فى تنمية شخصيته وأن تخلق فيه روح الاعتماد على النفس والإخلاص وقوة الإرادة فى ميادين العمل العام .

وليس من شك فى أن هذه الخطط الجديدة قد انطوت على تقوية الصلة بين المجتمع والشباب الذى تهيأت له أسباب الإقبال على اعتناق العنصر الروحى فى حياته والاستمساك به وهو ما تعتبره الشرائع السماوية من أكبر عناصر النجاح . . . على أنه مما يزيدنا طمأنينة فى مستقبل البلاد أن هذا الشعور سرعان ما نما بين مختلف طبقات الشعب حتى أصبح الشباب يؤمن فى قرارة نفسه بأن التعاليم الدينية تدعو إلى الحياة الروحية أساس السعادة والهناء ودعامة العمل والكفاح فى سبيل الوطن بما تبثه فيه من روح التقرب من الله . . .

إن الدولة الموحدة المنيعة الجانب لا تبنى إلا على الشباب وتكوين الأسرة الموحدة ، ومجتمعنا الجديد فى حاجة أشد الحاجة إلى عقلية عربية متشابهة فى سموها مع التعاليم الطيبة التى رسمتها الأديان والتى كان الشرق أسبق من الغرب فى التعرف عليها

والعمل بها والتى لا شك فى أن اتباع ما أوصت به هو خير كفيل بأن يرد للمجتمع العربى السعادة والرفاهية وأن يعيد لنفوسنا الطمأنينة والقوة الروحية . . .

وما أحرانا أن نحتفظ بشبابنا هؤلاء فهم رأس مال لنا ورصيد ضخم ، ولو قدر لواحد من كل ألف أن ينبغ لكان ذلك للوطن ربحاً وفيراً وعدة للمستقبل وعنصراً هاماً من عناصر ثروتنا القومية . . .

ووسط هذا الخلق المرجو لأفراد المجتمع . . . تبرز التعبئة الروحية كعامل مهم من عوامله . وتتفرع عن التعبئة الروحية بكل وسائلها المعروفة . . . التربية الدينية . . . فليس من شك فى أن حضارة العالم مهما بلغت من قوة وازدهار ، لا تكون أكثر من قصور مشادة فوق الرمال ما لم تقم على احترام للقيم الروحية التى أتت بها الأديان، وحملها أنبياء شهدت لهم العصور بالسمو والعظمة ورجاحة الرأى . . .

إن الحضارة ، أياً كانت تصبح زيفاً بدون الأخذ بهذه القيم . . . فإنها لم تحمل إلى الناس عبثاً . . . بل هى قد حملت إليهم لتسعد دنياهم وأخراهم . . . وليس عجباً بعد ذلك أن نرى أشقى الناس هم من بلغوا الذروة من حيث التقدم الحضارى وداسوا بالأقدام كل المثل والقيم . . .

إن القيم الروحية هى التى تستطيع وحدها أن تحفظ للإنسان سعادته وهدوء نفسه . . . وهى أيضاً التى تستطيع أن تحفزه على

العمل وأن تجعله يستشعر لذة هذا العمل ، ويدرك غايته ومرماه . . . فبالحياة الروحية السليمة والترويض عليها يستطيع المجتمع أن يخلق أفراداً نافعين يسهمون فى بنائه ويدفعون عجلة تقدمه .

وليس معنى أن يعيش الفرد حياة روحية ، أن يقبع فى عزلة عن مجتمعه أو ينظر إلى الدنيا نظرة عداء واحتقار . . . فهذه كلها رواسب ليس لها أساس فى الدين الذى يدعو الناس إلى أخذ نصيبهم من الدنيا ، والسعى فى مناكبها . . . وقد جاءت التشريعات الأخيرة التى تستهدف إخراج الأزهر من عزلته ، وإشراكه فى الحياة العملية ، متمشية مع أصول الدين الحنيف الذى يدعو إلى العمل ، ويمجد السعى من خلال التمسك بالقيم والأخذ بالفضائل . . .

وقد رأينا أن نقدم فى هذا الكتاب صورة من صور الحياة الروحية وهى التصوف الذى كان له أبعد الأثر فى إيجاد حياة تقوم أصلا على مجاهدة النفس ، والتسامى بها ، ومغالبة شهوات البدن وقمعها ، وتدعو إلى الإخاء والمساواة والسلام ، وتستهدف الوصول إلى المعرفة اليقينية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، والسعادة الحقيقية التى لا ترقى إليها صنوف السعادة الأخرى . . .

وقد يرى القارئ فى هذه الصورة نوعاً من التطرف الذى يبدو فى الانقطاع التام ، والقعود . . . ولكنه سيجد نفسه فى

النهاية وقد خرج بمزيد من معانى الحق والخير والجمال ، وشحنة هائلة من المثل والمبادئ التى اختص بها الصوفية وميزتهم على مر العصور . . .

تلك المعانى ، وهذه المثل ، هى ما ندعو أفراد المجتمع إلى أخذ أنفسهم بها . . . وترويض أبنائهم عليها . . . حتى يتحقق لنا مجتمع قوى خير تمتد جذوره إلى الأعماق . . .

٢

التصوف

لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كلمة « تصوف » تعتبر من أكثر الكلمات التى دار حول أصلها النقاش ، وكثرت المجادلات . فقد تعرضت هذه الكلمة للكثير من الجدل ، ووضعت لبيان مصدرها الذى اشتقت منه فروض شتى تحاول كل منها أن تتكهن بأصل الكلمة . وقد كثرت هذه الفروض بحيث بدا بعضها قريباً من روح التصوف وأكثر تمشياً مع أحواله ومراميه ، بينما بدا البعض الآخر أمام العقل المنصف ضرباً من ضروب الإغراب والتمادى فى فرض الفروض دون أن يكون ثمة رباط قوى يربطها بموضوعها . بل إن من هذه الفروض ما لا تستقيم نسبته لغويا إلى التصوف .

وقد افترض بعض علماء الصوفية والمؤرخين أن الكلمة

قد اشتقت من كلمة « سوفيا » وهي لفظ يونانى معناه الحكمة ، ومنه اشتقت كلمة « فيلوسوفيا » أى حب الحكمة ، فيصبح الفيلسوف هو الشخص المحب للحكمة .

وليس من شك فى أن الحكمة من حيث اهتمامها بالموضوعات البعيدة العميقة التى ليست فى متناول التفكير العادى ، تعتبر أرفع ضروب المعرفة لأن قوامها النظر السليم إلى الأمور ، وغايتها إماطة اللثام عما غمض فهمه على سائر الناس . . . وهى ليست سهلة المنال ، وليس فى مقدور كل الناس أن يتوصلوا إليها ، فإن تحصيلها يتطلب بذل الكثير من الجهد ، وقد يبذل طالبها جل عمره دون أن يروى ظمأه منها . ومن هنا كان من الدقة بمكان أن نقول مع « فيثاغورث»[1] الفيلسوف اليونانى إن الحكيم الذى دانت له الحكمة الكاملة لا وجود له . فالحكمة ليست من الأمور التى يستطيع إنسان أن يدركها إدراكاً

---

(١) فيلسوف إغريقى – اتخذ مذهب المتصوفة وأطلق على نفسه لقب محب الحكمة بدلا من لقب العاقل – قام برحلات عديدة فى سبيل العلم وأحاط بالكثير منها وعلى الأخص الرياضية والفلكية والموسيقى وغيرها – أقام فى مصر مدة من الزمن تعرف فيها أسرار « باكوس » و « أورفى » – وأسس كثيراً من المعاهد العلمية ودعا فيها إلى معرفة الواقع والحقيقة فى الحياة – كان يقول بأن الله هو الوحدة المطلقة الأولية وحدة الوحدات وأن الروح عدد يتحرك من ذاته والعالم كل منسجم منظم مركزه الشمس؛ تتحرك حولها الأجرام السماوية الأخرى بنظام موسيقى آلهى وينادى بأن الخير هو الوحدة والشر هو التنوع وأن العدل هو المساواة .

كاملا أو يسبر غورها . بل هى غاية يأخذ منها محبوها بمقدار . ويتوقف حظهم منها على ما وهبهم الله من دقة فى التفكير وبعد فى النظر . وتفسير ذلك أنه ليس هناك حكماء . . . بل هناك أفراد يحبون الحكمة ويسعون إلى الوصول إليها ، وهذا هو التعريف السليم لكلمة « فيلسوف » .

ولكن ليس هناك ما يدلنا على أن التصوف فى بدايته قد تأثر بالفلسفة اليونانية بالقدر الذى يجعلنا ننسبه إلى كلمة « سوفيا » اليونانية .

فإن الفلسفة اليونانية لم تؤثر إلا فى جماعة من الصوفيين يطلق عليهم اسم « الصوفيون الإلهيون المتفلسفون » أمثال محيي الدين بن عربى ، وابن الفارض ،وهؤلاء ظهروا فى القرن السادس الهجرى . فكأن الفلسفة اليونانية لم تؤثر فى التصوف الإسلامى إلا منذ هذا القرن ، وكان ذلك بعد أن عرف المسلمون التصوف ، وسموه باسمه ، وقطعوا فيه شوطاً كبيراً .

وهناك فرض آخر يفترض أن كلمة تصوف مشتقة من « صوفة » وهو اسم شخص كان يعكف على ذكر الله وعبادته عند البيت الحرام ، فكأن كل من يعكف على ذكر الله وينقطع إلى عبادته إنما يشبه هذا الرجل .

ومن الكلمات التي قيل إن التصوف قد اشتق منها مالا تستقيم نسبته إليها لغوياً ، مثل كلمة « صوفان » التى افترضت على اعتبار أنها تبين ما يمتاز به الصوفيون من زهو فى المأكل ،

ولكن تهافت هذا الرأى يبدو لنا إذا ما عرفنا أن الصفة من صوفان هى صوفانى وليست صوفى .

وثمة تفسير آخر يرجع الكلمة إلى الصفاء . . . وفى ذلك يقول أبو الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وقال أبو حمزة الخراسانى : الصوفى من صفى من كل درن فلم يبق فيه وسخ المخالفات بحال ، ويرد القشيرى على هذا الفرض فيقول : « من قال إنه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة »[1] .

ويذهب البعض إلى أن الكلمة مشتقة من « الصف » على اعتبار أن أولياء الله الخاشعين القانتين الزاهدين سيكونون يوم القيامة فى الصف الأول بين يدى الله . ولكن هذا الفرض أيضاً غير صحيح من جهة اللغة .

ولعل أصح نسب لهذه الكلمة هو « الصوف » ، فقد كان لبس الصوف من دلائل الزهد والتقشف وإهمال المظهر . وقد أقر هذا الرأى الكثيرون من الصوفية والمؤرخين أمثال زكريا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٥ .

الأنصارى، والسراج الطوسى، وابن خلدون . فمما أثر عن الأنبياء أنهم كانوا يفضلون لبس الصوف . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يركب الحمار ويلبس الصوف .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة من صوف . وسراويل من صوف وكساء من صوف » .

وروى ابن قتيبة أن عيسى عليه السلام خرج على أصحابه وعليه جبة من صوف وكساء وسروال قصير ، حافياً مجزوز الرأس والشاربين ، باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش ، طويل شعر الصدر والذراعين والساقين ، فقال : السلام عليكم يا بنى إسرائيل . . . أنا الذى أنزلت الدنيا منزلها ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟

فقالوا : أين بيتك يا روح الله ؟

قال : بيتى المساجد ، وطيبى الماء وإدامى الجوع ، ودابتى رجلى ، وسراجى بالليل القمر ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وطعامى ما تيسر ، وفاكهتى وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف وشعارى الخوف ، وجلسائى الزمنى والمساكين . أصبح وليس لى شيء ، وأمسى وليس لى شيء . . . وأنا طيب النفس غنى مكثر ، فمن أغنى وأربح منى ؟[١] »

---

(١) الدكتور زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ص ٥٢ ، ٦١ .

وقد سئل إبراهيم ابن أدهم عن بدء أمره فى التصوف ، كيف كان ، فقال :

« كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابًّا ، فركبت إلى الصيد فخرجت يوماً على دابة لى ومعى كلب ، فأثرت أرنباً وثعلباً . فبينا أنا أطلبه إذ هتف بى هاتف لا أراه : يا إبرهيم ، ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات ، ثم هتف بى هاتف من قربوس (مقدمة) السرج : والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت » قال : « فنزلت فصادفت راعياً يرعى الغنم لأبى فأخذت جبته الصوف فلبستها ، ودفعت إليه الفرس وما كان معى وتوجهت إلى مكة[1] » .

على أنه ليس هناك ما يدعونا إلى الجزم بأن الكلمة قد اشتقت من هنا أو من هناك . . . والأمر لا يعدو فى حد ذاته أن يكون ضرباً من محاولة التمهيد أو إلقاء الضوء على موضوع ليس بالمألوف أمره بين الناس . فإن من اهتموا بالأمر قد اختلفوا حتى فى أبسط الأدلة التى أوردناها فى هذه العجالة . ومن ذلك ما أورده المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته المعروفة نقلا عن القشيرى فقد قال :

« ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ،

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٢ .

والظاهر أنه لقب ، وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى . وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه » .

وعلق ابن خلدون على هذا بقوله « قلت – والأظهر أن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف[١] » .

٣

معنى التصوف

ومهما يكن من أمر اختلاف الصوفية والمؤرخين فى تحديد الأصل الذى اشتقت منه كلمة تصوف . . . فإن الحقيقة التى لا يستطيع أن يختلف فيها منصفان أن التصوف ينطوى على نزعات أخلاقية ووجدانية جديرة بالدراسة والتأمل . . . وهو أيضاً وسيلة لمعرفة تسمو على كل ما عداها من المعارف . . .
وقد ذخرت كتب الصوفية بالكثير من العبارات التى تشرح معنى التصوف وتوضح مفهومه وغايته ومنهجه . . . ومن هذه العبارات يستطيع القارئ الفطن أن يتبين أن التصوف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٨ .

الصحيح عبارة عن منهج يوصل إلى غاية . . . هذا المنهج يتمثل فى أنواع من السلوك والرياضات والمجاهدات يأخذ الصوفية بها أنفسهم فيصلون إلى غايتهم القصوى ألا وهى التحقق بمعرفة الله عز وجل وإدراكه إدراكاً مباشراً ... ولعمرى هل هناك ما يطمع فيه مخلوق بعد ذلك ؟ . . .

ونحن إذا استعرضنا بعضاً من هذه التعاريف رأينا الدليل على صدق ما نزعمه . . . قال أبو القاسم النصراباذى : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد فى هذا السبيل إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء .

وسئل أبو الحسن النورى عن التصوف فقال إنه ترك كل حظ للنفس ، فليس التصوف رسوماً ولا علوماً ولكنه أخلاق . . .

وقال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التعزف عن الدنيا.

وسئل طاهر المقدسى لم سميت الصوفية بهذا الاسم ، فقال لاستتارها عن الخلق بلوائح الوجد ، وانكشافها بشمائل القصد . . .

وقال أبو بكر الشبلى : التصوف ضبط حواسك ومراعاة

أنفاسك ، وهو أيضاً التآلف والتعاطف . . .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : التصوف تصفية القلب عن موافقة البشرية ، ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة دواعى النفسانية ، ومنازلة صفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واستعمال ما هو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة . . .

وذهب أبو الحسن البوشنجى إلى أن التصوف هو الحرية والفتوة وترك التكلف فى السخاء والتظرف فى الأخلاق . . .

وقال جعفر الخلدى : التصوف هو العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنىء . . .

وكما حدد الصوفية معالم التصوف ورسموا طريقه ، فقد حددوا أيضاً معالم شخصية الصوفى ، ورسموا أحواله . . .

قال الغزالى : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى إطلاق اسم الصوفى . والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل فى غمارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات : الصلاح والفقر وزى الصوفية ، وألا يكون مشتغلا بحرفة وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة .

وذهب آخر إلى أن الصوفى هو الخارج عن النعوت

والرسوم ، وصفاء الصوفى عن النعوت والرسوم ألزمه اسم التصوف فصفى عن ممازجة الأكوان كلها بمصافاة من صافاه فى الأزل بالأنوار والمبادر .

وقال الحلاج : الصوفى هو الرامى بقصده إلى الله عزوجل فلا يعرج حتى يصل وسئل بنان بن محمد الحمال عن أجل أحوال الصوفية فقال : الثقة بالمضمون والقيام بالأوامر ومراعاة السر والتخلى عن الكونين بالتشبث بالحق .

وقال أبو محمد الراسبي : لا يكون الصوفى صوفياً حتى لا تقله أرض ، ولا تظله سماء ، ولا يكون له قبول عند الخلق ، ويكون مرجعه فى كل أحواله إلى الحق عز وجل . . .

وقال أبو العباس الدينورى : إن لله تعالى فى خلقه رياضات ليتجلى لهم بربوبيته ، يراضون لهم فى مشاهدات الأشياء ليتحققوا بحقيقة الأشياء كما راض إبراهيم خليله صلوات الله عليه حين رأى النجوم ، فقال فى بدايته : « هذا ربى » . . . وإنما هى عين الجمع من فرط البلاء وغلبة الشوق وحصول الجمع فى الجمع من فرط البلاء وغلبة الشوق وحصول الجمع فى الجمع ، من حيث ما ورد عليه من الحق للحق حتى قال : « هذا ربى » راضه ليحوله إلى ما هو من ورائه . ألم تسمع إلى قوله : « فلما أفل قال لا أحب الآفلين ».

وحدد أبو عمر الدمشقى خصال الصوفى فى أربعة أشياء هى السياسة ، والرياضة ، والحراسة ، والرعاية . فالسياسة والرياضة ظاهران ،

والحراسة والرعاية باطنان ، فبالسياسة يصل العبد إلى التطهير ، وبالرياضة يصل إلى التحقيق ، والسياسة حفظ النفس ومعرفتها ، والرياضة مخالفة النفس ومعاداتها ، والحراسة معاينة بر الله فى الضمائر ، والرعاية مراعاة حقوق المولى بالسرائر وميراث السياسة القيام على وفاء العبودية ، وميراث الرياضة الرضا عند الحكم وميراث الحراسة الصفوة والمشاهدة ، وميراث الرعاية المحبة والهيبة ثم الوفاء متصل بالصفاء ، والرضا متصل بالمحبة ، علمه من علمه ، وجهله من جهله . وقال أبو بكر الدقى : علامة الصوفى أن يكون مشغولا بكل ما هو أولى به من غيره ويكون معصوماً عن المذمومات . . .

فالتصوف طريق له آدابه وأحكامه . . . ولا بد لسالكه أن يتزود بما يعينه على السير فيه ، وليس اجتيازه فى مقدور كل الناس ، إنما تجتازه الصفوة التى حباها الله بفضل من عنده . . . فأمدها بمزيد من القوة لتحارب أهواء النفس ، وتصارع وساوس الشيطان ، ونفخ فيها من روحه فصبرت وزهدت وعرفت الله حق معرفته وعبدته بإخلاص وآوت إليه بالشوق والمحبة . . . واتبعت السنة قولا وعملا ، وعزماً وعقداً ونية ، فجانبت البدع واتبعت ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام ، وتباعدت عن مجالس الكلام وأهله ولزمت طريق الاقتداء والاتباع . . . وكرهت نفوسها الدنيا فأحبها أهل الأرض . . . وعافت قلوبها الدنيا فأحبها أهل السماء . . .

سابعا

الطريق الصوفي

يحتاج الصوفي في طريقه الروحي الطويل الذي يبدأ بالتوبة وينتهي إلى الفناء في الرب والاتحاد به عددا من المقامات والأحوال يتوقف عليه. وقد اختلف الصوفيون في ماهية كل منها وعددها. فذهب الغزالي في الربع الأخير من إحياء علوم الدين إلى أن المقامات تسعة هي: التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة. ويضيف إلى المقام الأخير ثلاثة توابع هي الشوق والأنس والرضا. ويفرض على سالك الطريق أربعة فروض عامة هي السنة والصدق والإخلاص، ثم المراقبة والمحاسبة، ثم التفكر في ذكر الموت زهدا بالدنيا وتأهبا للآخرة.

وفي كتاب «اللمع» يذهب السراج الطوسي إلى أن هذه المقامات سبعة هي التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا. أما الأحوال فهي المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين.

والمقام كما يعرفه السراج الطوسي هو مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تبارك وتعالى ومنه آية القرآن ذلك لمن خاف مقامي

خائف الملامة وخائف الغفلة [illegible].

والحال [illegible] فهو أيضاً بعبارة من عبارات الطوسي لما نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم. وهو كما يعرفه الجرجاني معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة. ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً. [illegible]

فالمقامات هي المراحل التي يقطعها الصوفي بمجهوده الشخصي أما الأحوال فهي أحاسيس ومشاعر وجدانية [illegible] نتيجة لتلك المقامات أو بمعنى آخر يمكن القول بأن المقامات معالم تحدد الطريق وتبين مدى ما يجتازه الصوفي [illegible] كلما اجتاز الصوفي مقاماً بمجهوده الشخصي ومغالبته لجسده كلما خطا خطوة في طريقه [illegible] وكلما [illegible] من [illegible] في مقابل ذلك [illegible] عاجلاً يبعث في نفسه الطمأنينة والأمل والرجاء والرضا [illegible] هذا الجزاء هو الأحوال التي تختلف عليه [illegible] فعلى المقامات التي يقطعها ويجتازها بمجهوده ومشقته في الطريق. فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود. [illegible]

الصوفية على اختلاف فيما بينهم في ماهية المقامات وعددها [illegible] يتفقون أن التوبة هي بداية الطريق فهي انتباه القلب عن رقدة الغفلة [illegible] العبد [illegible] الحالة [illegible] فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنعه [illegible]

الأفعال ، سنح فى قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة . وشرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء : الندم على ما عمل من المخالفات ، وترك الزلة فى الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى » .

وقد حدد صاحب « قوت القلوب» عشرة شروط يجب توفرها فى التائب وهى ألا يعصى الله تعالى وألا يصر إذا ابتلى بمعصية ، والتوبة إلى الله تعالى منها ، والندم على ما فرط منه ، وعقد العزم على الطاعة إلى الموت ، وخوف العقوبة ، ورجاء المغفرة ، والاعتراف بالذنب ، واعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل عنه ، والمتابعة بالعمل الصالح ليكفر عمّا تقدم من سيئات .

ومن أهم الوسائل التى تمكن الصوفى من المضى قدماً فى طريق النور أن ينسى آثامه ، وما مضى من خطايا ، فالصوفيون يصدرون التوبة كما لو كانت باباً مكتوباً عليه : « أيها الداخلون دعوا أنفسكم وراءكم » . ومعنى ذلك أن على الصوفى الذى تاب ألا يكدر نفسه بالتذكر الدائم لآثامه التى اقترفها قبل دخوله من باب التوبة ، فإن هذا التذكر من شأنه أن يعرقل جهوده للوصول إلى غايته فإن « التائب حبيب الله ، وحبيب الله فى الشهود ، ومن العيب أن تتذكر الآثام فى الشهود ، لأن تذكر الإثم حجاب بين الله وبين من يشهده » و « نسيان الذنوب طريق العارفين وحال المحبين » .

وبعد أن يتأكد السالك من صدق توبته يتخذ شيخاً يهديه سواء الطريق . . . والشيخ هنا هو المنظم لجهود مريديه ، وهو الذى يرسم لهم معالم الطريق فهم يدينون له بالولاء المطلق ، وسلطته الروحية عليهم لا تفوقها أية سلطة أخرى . ويخضع الشيخ مريديه عدة أعوام للرياضة والمجاهدة ، تكون بمثابة اختبار لصدق نيتهم ، وتقييماً لمدى تحملهم المضى فى الطريق ، بحيث لا يكون هناك مجال لعابث أو ضعيف الإرادة خائر العزيمة .

تاب أبو بكر الشبلى فى مجلس واحد من الصوفية يدعى « خير النساج » ، ولما أراد أن يتخذ له شيخاً دلوه على الجنيد ، فذهب إليه وقال له : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربانى ، فإما أن تمنحنيها أو تبيعنيها » .

فقال الجنيد : « لا أستطيع أن أبيعكها ، فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها . إلق بنفسك غير هياب — فى عباب المحيط مثلما فعلت ، لعلك إن صبرت أن تظفر بها » .

فسأله الشبلى عما يفعل فقال الجنيد : « اذهب بع الناس كبريتاً » .

وفى ختام العام قال له : « لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس ، فكن درويشاً لا تشغل نفسك بغير السؤال » . وفى خلال العام كان الشبلى يجوس شوارع بغداد يسأل المارة

[illegible] فقال له أرأيت [illegible] الناس [illegible]. فلا [illegible] [illegible] كتبت على [illegible] [illegible] [illegible] الآفاق [illegible] [illegible] «[illegible]»

[illegible] الشبلي [illegible] عليه. فقال الجنيد حين عاد إليه: «لا يزال فيك [illegible] [illegible] الناس [illegible] آخر [illegible]. [illegible] كل يوم [illegible] الصدقات التي أعطيت له للجنيد [illegible] فيفرقها على الفقراء [illegible] الشبلي [illegible] طعام إلى الصباح القادم. فلما انقضى العام على [illegible] [illegible] أنه [illegible] فلما انقضت [illegible] العام [illegible] الجنيد: [illegible] نفسك الآن [illegible] الشبلي [illegible] [illegible] توثق إيمانك» . . .

[illegible] الصوفية [illegible] الرغبة في المال. سأل رجل من الصوفية «بشراً الحافي» [illegible]: [illegible] الخلق في الإقامة [illegible] متعلقاً بالزهد منصرفاً عن الدنيا [illegible] أقبل [illegible] الفقراء [illegible]

ولكن يعتقد المتوكل أنه يأخذ قوته من الغيب. [illegible]

أصحاب بشر، فقال بشر: اسمع أيها الرجل. الفقراء ثلاثة!

[illegible] فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ...

فذاك من الروحانيين إذا سأل الله أعطاه، وإن أقسم على الله

أبر قسمه. وفقير لا يسأل وإن أعطي قبل فذلك من أوسط

القوم [illegible] التوكل والسكون إلى الله تعالى وهو ممن توضع

له الموائد في حظيرة القدس، وفقير اعتقد الصبر ومدافعة

الوقت، فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله

بالسؤال، فكفارة مسألته صدقه في السؤال. فقال الرجل:

« رضيت رضي الله عنك كما رضيتني ».

وسمع الجنيد «سري السقطي» يقول: «أعرف طريقاً

مختصراً قصداً إلى الجنة» فقال الجنيد: «ما هو؟» فقال

السقطي: «لا تسأل أحداً شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً،

ولا يكن معك شيء تعطي منه أحداً»!

والصوفيون [illegible]

[illegible] إلى التوحيد. [illegible] البلخي: بأي شيء يعرف

[illegible] من الله تعالى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في الدنيا [illegible]

[illegible] أعظم [illegible]

خرج منها كان فى فرحين : فرح فى الدنيا وفرح فى الآخرة » .

وسئل البلخى أيضاً : « بأى شىء يعرف بأن العبد اختار الفقر على الغنى ؟ » .

فقال : « يخاف أن يصير غنياً فيحفظ الفقر بالخوف ، كما كان من قبل يخشى أن يصير فقيراً فيحفظ الغنى بالخوف ، وإن حفظ الفقر أن ترى الفقر منة من الله عليك ، حيث لم يضمنك رزق غيرك ، ولم ينقصلك مما قسم لك . » وقال : « أبو حفص النيسابورى » ما أعز الفقر إلى الله ، وأذل الفقر إلى الأشكال وما أحسن الاستغناء بالله ، وأقبح الاستغناء باللئام ...

والفقر عند الصوفية له أحكامه وآدابه ، سئل النيسابورى أيضاً عن ذلك فقال : « حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك الخصومات فى الأرزاق ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم ، والمعاونة فى أمور الدين والدنيا » .

ولا يصح أن يؤدى فقر الصوفى إلى تكبره ، فإن جمال الفقير كما يقول « حمدون القصار » فى تواضعه ، فإذا تكبر بفقره فقد أربى على الأغنياء فى التكبر . كما لا يصح أيضاً أن يكون فى عزوف الفقير عن الدنيا ما يصبغه بالتكلف ، أو يكون فقره دافعاً إلى الشكوى وإظهار البلوى . . . قال : « أبو الحسن الصيرفى » ليس الفقير من يظهره فقره ، إنما الفقير من

يكتم فقره ويأنس به ويفرح .

وقال : « أبو بكر الدقى : « الفقير هو الذى عدم الأسباب من ظاهره وعدم طلب الأسباب من باطنه .

وفقر الصوفى أرفع درجات الغنى ، لأنه يقوده إلى اليقين ... قال « أبو العباس القاسم السيارى» : الأغنياء أربعة . . . غنى بالله ، وغنى بغنى الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «الغنى غنى القلب » وغنى باليقين ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كفى باليقين غنى » ، وغنى لا يذكر غنى ولا فقراً ، لما ورد على سره من هيبة القدرة .

وسئل : « أبو على بن الكاتب» : إلى أى الجنبتين أنت أميل : إلى الفقر أم الغنى ؟ فقال : إلى أعلاهما رتبة وأسناهما قدراً ، ثم أنشأ يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العليــاء فى جانب الفقر
وإنى لصــبار على ما ينوبنى
وحسبك أن الله أثنى على الصبر

ومن مقامات الصوفية كما أسلفنا ، الزهد . . . وهو يقوم على أساس أن فى الإنسان عنصر شر هو جسده . . . وأعوان الجسد الدنيا والشيطان ، وهى جميعاً تمثل أخطر العقبات التى تقف حائلا بين الإنسان ومعرفة الله ، لذلك فإن رياضة النفس ومجاهدتها ، واستئصال عوامل الشر منها هى أهم ما يقوم به

الصوفي في طريقه الروحي . . . .

[illegible] : [illegible] يروض المريد نفسه ؟ وكيف يروضها ؟

. . . [illegible] على [illegible] وصحبة الصالحين [illegible] «[illegible]» [illegible]

: [illegible] «[illegible]» [illegible] »

وما النفس إلا حيث يجعلها [illegible]

[illegible] » : [illegible]

[illegible] الأيام [illegible] :

فلما رأت عزمي على [illegible]

والزهد بعبارة من عبارات الطوسي [illegible] أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية وهو أول [illegible] القاصدين إلى الله عز وجل والمنقطعين إلى الله والراضين [illegible] والمتوكلين على الله تعالى . فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ، [illegible] الدنيا رأس كل [illegible] وطاعة

[illegible]

قال أبو سعيد الأعرابي: اشتغالك بنفسك يقطعك عن عبادة ربك، واشتغالك بهموم الدنيا يقطعك عن هموم الآخرة.

والصوفيون في صراعهم مع شهوات الجسد، وهموم الدنيا يرون أن الأرواح قد خلقت من النور، وأسكنت ظلم الهياكل، فإذا قوي الروح جانس العقل، وتواترت الأنوار، وأزالت عن الهياكل ظلمتها، فصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل، فانقادت ولزمت طريقها، ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب تطالع مجاري الأقدار. وما أقساها من معركة يخوضها العبد كل يوم، فهو إذا أصبح كان مطالباً من الله بالطاعة؛ ومن نفسه بالشهوة، ومن الشيطان بالمعصية. لكن الله تعالى رفق به حيث أمره في ابتداء صباحه بأمر، وبعث إليه منادياً يناديه، ويندبه إلى أمر الله، وهم المؤذنون يؤذنون ويكبرون في أذانهم، تكبيرات مكررات.. الله أكبر.. الله أكبر.. فيكبر في قلبه أمر سيده فيبادر إلى طاعته، أو يخالف هوى نفسه وشيطانه، فإن بادر إليه أكرمه الله بالظفر على نفسه، وغلبته لشهوته، وأعانه على عدوه بقطع الوساوس من قلبه، فكأنه من بادر إلى الله بلبه ودخل إلى الحرية صار غالباً لا مغلوباً.

ويقارن «أبو بكر بن يزدانيار» بين الروح والعقل

والجسد مقارنة لطيفة فيقول : « الروح هى مزرعة الخير لأنها معدن الرحمة، والنفس، والجسد مزرعة الشر لأنهما معدن الشهوة، والروح مطبوعة بإرادة الخير والنفس مطبوعة بإرادة الشر ، والهوى مدبر الجسد، والعقل مدبر الروح ، والمعرفة حائرة فيما بين العقل والهوى ، والمعرفة فى القلب، والهوى والعقل يتنازعان ويتحاربان ، والهوى صاحب جيش النفس ، والعقل صاحب جيش القلب ، والتوفيق من الله مدد العقل ، والخذلان مدد الهوى ، والظفر لمن أراد الله سعادته ، والخذلان لمن أراد الله الله شقاوته » .

والنفس إذا استولت على عبد صار أسيراً فى حكم الشهوات محصوراً فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه ، لأن الله تعالى يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » فهم لأنهم تكبروا بأحوال النفس والخلق والدنيا ، صرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاع بالمواعظ ، وحبسهم فى عقولهم وآرائهم فلا يعرفون طريق الحق ، ولا يسلكون سبيله . . .

فلا سبيل إلى الخلاص من شهوات الجسد إلا بالزهد فيها ، ولا سبيل إلى التخلص من وساوس النفس إلا باستئصال أهوائها وإماتة رغباتها حتى تدق وتصفو ، وتنفض عن كاهلها

ما يربطها بالأرض ، وتنطلق مغردة فى سماء الفيض والإلهام . . .

وإذا كان الزهد معناه قتل كل رغبة للنفس والجسد أحلها الله أو حرمها . . . فإن التوكل يقوم أساساً على استئصال كل إرادة شخصية للفرد . . . وهم يذهبون إلى أن التوكل فريضة ، ويستشهدون بقوله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » . ومن يتوكل على الله أسكن الله قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم ، وأوصله إلى كل محبوب ، فإنه عز وجل يقول : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . والتوكل عند الصوفية أرفع مقاماً من الكسب . . .

سأل رجل « أبا عبد الله بن سالم البصرى » : أنحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل ؟

فقال : التوكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، وإنما أستن الكسب لمن ضعف عن حال التوكل ، وسقط عن درجة الكمال التى هى حاله صلى الله عليه وسلم ، فمن أطاق التوكل فالكسب غير مباح له بحال ، إلا كسب معاونة لا كسب اعتماد عليه . ومن ضعف عن حال التوكل التى هى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبيح له طلب المعاش والكسب ، لئلا يسقط عن درجة سنته حيث سقط عن درجة حاله .

والصوفيون يطبقون مبدأ التوكل فى كل شىء ، فهم

لا يستطيعون إلى طلب القوت سبيلا ، يعملون ليأكلوا لا بأجر عملهم ، ولا يمارسون تجارة ، ولا يعترفون بفائدة الدواء إلا لمرضى ... فهم أسلموا أنفسهم تماماً لعناية الله .

سئل أبو عبد الله الجلاء : ما تقول فى الرجل يدخل البادية بلا زاد

فقال : هذا من فعل رجال الله عز وجل . قيل : فإن مات جوعاً

قال : الدية على القاتل .

وقال رجل « لمعروف الكرخى » : أوصنى

فقال معروف : توكل على الله حتى يكون هو جليسك وأنيسك وموضع شكواك ، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك .

وقد روى أن علة أصابت أبا الحسين النورى ، وأصابت الجنيد فى نفس الوقت علة أخرى ، فأخبر الجنيد عن وجده ، وكتم النورى علته ، فقيل للنورى : لماذا لم تخبر كما أخبر صاحبك ؟

فقال : ما كنا لنبتلى ببلوى فنوقع عليها اسم الشكوى

ثم قال :

إن كنت للسقم أهلا فأنت للشكر أهلا
عذب فلم يبق قلب يقول للسقم مهلا

فأعيد ذلك على الجنيد ، فقال : ما كنا شاكين ولكنا أردنا أن نكشف عن عين القدرة فينا ، ثم قال الجنيد ...

أجل ما منـــك . يبـــلمو بالـ لأنه ، فنطلها بهجلالة
ولشق بايار ، أنس ا ، قلعهي آ ا لتحصل ، مه ا أن ، تجلا
أفتيني ، بطن ، فجلعيلني ، لام فكيف لا ، أرها تالجلا ؟ .
، ، أفبلغ ذلك الشيلي فقال بيته :
محبتي ا ، فيـــك ، أني ا ، الا ، أبال ، ا بمحبتي ا
يا ، شيفالي ، من ، االقلم ، لو إن ، ا ، كنت ، علي .
. وليس ا هنالك أيطلي من المتوكل بالنبي انزويه هذيه القصة .
سقط درويش فى نهر دجلة ، فصاح بالرجل على الشاطئ
رآه لا يعرف السباحة . . « أتريد أنه أدعو بالسلامة يخرجك إلى
الشاطئ ؟ » .

: فقال الدرويش بلا ن
فقال الرجل : . أفتريد أن تغرق ا . . . ا »
فقال الدرويش : لا . . .
فقال الرجل : فماذا تريد إذن ؟
فقال : يفعل الله ما يريد ، شأني بالإرادة ؟ . متصه ن
والعمدة فى طريق التصوف — كما يقول القشيري هو
الذكر ، فهو ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى ،
ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر
ويذهب القشيرى إلى أن الذكر على ضربين : ذكر اللسان
وذكر القلب ، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر
القلب والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه

وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه . . .

ويحتم التصوف تلاوة القرآن وذكر الله فى كل وقت من أوقات النهار والليل . . . والأذكار لها قيمتها الكبرى عند الصوفية ، بل هم يرقون بها إلى مستوى الفرائض الحتمية . وأدنى الذكر — كما يقول أبو العباس الدينورى — أن ينسى الذاكر ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر . . . ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر ... وهذا حال فناء الفناء . . .

ومهما حاولنا بيان أهمية الذكر فى الطريق الصوفى فلن نستطيع أن نبلغ دلالة الرواية التالية . . .

أمر سهل بن عبد الله واحداً من مريديه بأن يقضى نهاره فى ترويد « الله . . . الله » دون انقطاع . . . ولما اعتاد ذلك ، أمره أن يرددها فى ليله أيضاً . . . وأدى به ذلك إلى أنه كان يردد الكلمة وهو نائم ، حينئذ أمره سهل بأن يديم ذكر الله فى صمته . وظل هكذا حتى تشرب كيانه كله ذكر الله ودوام التفكير فى ذاته .

وذات يوم سقطت على رأسه كتلة من الخشب ، فشج رأسه ، وانبثق الدم منه وسال على الأرض كاتباً . . . الله . . . الله . . .،

وبعد أن يجتاز السالك هذه المعالم . . . تثبت قدمه فى الطريق ، ويثق شيخه فى قدرته على المضى قدماً حتى يصل

إلى نبع النور والإلهام ، فيعطيه (المرقعة) التى تعتبر أول اعتراف من شيخه به . . .

وللبس المرقعه مغزاه ومدلوله عند الصوفية . . . فقد سأل رجل أبا عبد الله بن السجزى : لم لاتلبس المرقعة ؟

فقال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة . . .

إنما يلبس لباس الفتيان من يصبر على حمل أثقال الفتوة . . .

فقيل له : ما الفتوة؟ فقال: رؤية أعذار الخلق وتقصيرك ، وتمامهم ونقصانك ، والشفقة على الخلق كلهم برهم وفاجرهم . وكمال الفتوة هو ألا يشغلك الخلق عن الله عز وجل . . .

٥

الفناء

يعتبر الفناء أرقى مقامات النفس وأرفع أحوالها بما يهيئه للصوفى من اتحاد بالله فيصبح فى حالة من السعادة والانشراح لا يمكن التعبير عنها لما يراه ويسمعه مما لا يستطيع إنسان أن يتصوره . إنها السعادة بأجلى معانيها وأسمى درجاتها . . . سعادة من وصل إلى غاية لا يستطيع غيره من البشر أن يدركها ،

فدانت له الحقائق وتهتكت أمامه الستر ، وفتحت له أبواب الأسرار السامية على مصراعيها فصعد هانئاً منتشياً إلى عالم النور والملائكة .

وقد كان أبو اليزيد البسطامى الصوفى الفارسى المتوفى سنة ٢٦١ ﻫ أول من قال بالفناء ، وله فى ذلك عبارات مشهورة تعبر عما يشعر به الصوفى وهو فان فى الله متحد به . ومن هذه العبارات قوله :

« أنا عرش الله ، واللوح المحفوظ والقلم التى بها يخلق الله الخلق ، وأنا إبرهيم وموسى، وعيسى. وجبريل وميكائيل وإسرافيل . . .

وقوله : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » .

وقد سئل أبو على الجوزجانى عن أبى اليزيد البسطامى ، وهذه العبارات التى تحكى عنه ، فقال : رحم الله أبا اليزيد ! له حاله وما نطق به ، ولعله تكلم بها على حد الغلبة أو حال السكر ، كلامه له ولمن تكلم عليه ، وليس لمن يحكى عنه فالزم أنت يا أخى أولا مجاهدة أبى يزيد ، وتقطعه ومعاملاته . ولا ترتق إلى المقام الذى بلغ به بعد تلك المجاهدات ، فإن بلغ بك إلى شىء من ذلك ، فاحك إذ ذاك كلامه ، فليس بعاقل من ضيع الأدنى من المقامات ، وادعى الأعلى منها .

ويذهب « نيكلسون » إلى أن الفناء مقتبس من التعاليم البوذية ، وكانت هذه التعاليم شائعة فى بلاد الفرس حيث ولد

أبو اليزيد البسطامى وترعرع . ومما يؤيد هذا الرأى أن فكرة الفناء عند الصوفية تشبه إلى حد بعيد فكرة « النرفانا » الهندية التى تقول بفناء الروح الجزئية فى عالم الأرواح . وعلى أية حال فإن هذه الفكرة أياً كان مصدرها قد لقيت تأييداً كبيراً من صوفية المسلمين . فراحوا يعبرون عنها بالنثر حيناً وبالشعر حيناً ، ومن ذلك قول الحسين ابن منصور الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

وقوله : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى .

وكان يصيح وهو فى حالة الفناء قائلا : ليس فى الجبة غير الله .

فرماه الفقهاء بالكفر ، وأهدروا دمه على اعتبار أن تعاليمه من شأنها أن تقود إلى فوضى اجتماعية ودينية . . .

وعند ما سيق إلى حتفه قال :

« وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك وتقرباً إليك ، فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد . . . »

والفناء مرادف لكلمة جذب ، وقد جاء ذكر هذه الكلمة

فى كتابات كثير من الصوفية كحالة تعرض للصوفى فى طريقه الطويل إلى المعرفة الحقة ، والجذب يهيئ الأسباب التى تتصل بها الروح مباشرة بالله، وتتحد به، ويقول السراج الطوسى صاحب اللمع موضحاً معنى الفناء :

« ومعنى الفناء والبقاء فى أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى فى سابق العلم » .

ومن الكلمات التى تستخدم أيضاً لتؤدى معنى الفناء ، كلمة « ذهاب » ، فالفناء كما يقول السراج الطوسى أيضاً ذهاب القلب عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ثم يذهب عن ذهابه ، والذهاب عن الذهاب ، هذا ما لا نهاية له .

والفناء عملية تحصل تدريجاً على مراحل خمس فيما يذهب السراج ، فأول علامة الفانى ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله تعالى ، ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له . ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى له حتى يبقى حظه بالله ، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه . ثم ذهاب حظه برؤية حظه لفناء الفناء وبقاء البقاء .

وقد شرح القشيرى الفناء فى رسالته فجعله على ثلاث

مراحل : الأولى الفناء عن النفس وصفاتها بالبقاء بصفات الحق والثانية الفناء عن صفات الحق بشهود الحق ، والثالثة الفناء عن شهود الحق بالاستهلاك فى وجود الحق . ومعنى الاستهلاك فى وجود الحق ، فناء الصوفى عن فكره وإرادته والتأمل فى وجود الحق واستهلاكه فى ذلك استهلاكاً لا وعى فيه .

وكثيراً ما يكون الفناء مصحوباً بحالة يفقد فيها الصوفى إحساسه ، وإن كان ذلك ليس بالأمر العام فيما بينهم .

وفى هذا يقول السرى السقطى أحد صوفية القرن الثالث الهجرى : إن الصوفى فى حالة الفناء لو ضرب وجهه بالسيف لما أحس به .

ويشرح ابن الفارض معالم الطريق الذى يجتازه الصوفى حتى يصل إلى حالة الفناء التام فيحدد هذه المعالم بثلاثة أحوال ، الأولى هى حالة الشعور أو الوعى وهى حالة يشارك الصوفى فيها غيره من الناس ، فالناس جميعاً يتمتعون بها أثناء يقظتهم . والحالة الثانية هى فقدان ذلك الوعى أثناء الوجد الصوفى وهى تسمى أيضاً بحالة السكر . أما الثالثة فهى حالة وعى ثان ، يرتفع فيها الوجد الصوفى إلى أعلى مراتبه .

والواقع أننا إذا حاولنا أن نعرف حالة الفناء تعريفاً كاملا ، لما استطعنا أن نبلغ هذا التعريف ، ولما استطعنا أن نجد فى كتابات الصوفيين ما يشفى غليلنا لأنها حالة لا يمكن تعريفها داخل إطار الألفاظ المألوفة . وقد ذهب الصوفيون أنفسهم

إلى أنه لا يمكن القول بأن تعريفاً بعينه يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على هذه الحالة ويعبر عنها تعبيراً واضحاً . فالفناء معاناة جوانية ، وهو فى حد ذاته تجربة عميقة لا يدرك معناها إلا من يعيشها . . . تجربة أقرب إلى أن تكون هبة من الله سبحانه وتعالى ، بل هى كذلك بلا شك . . . فهى لا تعترف بمنطق. ولا بقانون ، ولا بوساطة ولا بأية مفاهيم بشرية أخرى ، إنما هى كما يذكر الغزالى فى الرسالة اللدنية :

« كالضوء من سراج الغيب ، يقع على قلب صاف فارغ لطيف ، ذلك بأنه حينما يرتبط الفانى بالخالد لا يبقى للفانى وجود ، ولست ترى أو تسمع سوى الله عند ما تبلغ درجة هذا اليقين ، وهو يقينك بأن ما من موجود بحق سوى الله . فإذا عرفت نفسك فأنت هو وأنت متحد به وليس سواه بموجود . »

فمن شروط الفناء تلاشى شخصية الإنسان وانعدام شعوره بوجوده . . . ويعبر أحد الصوفية عن ذلك فى قوله :

« دعنى أتلاشى وأفنى ، فإن الفناء يصيح بى بأننا إليه نعود

ويقول جلال الدين الرومى فى رباعياته :

« لم تكن روحانا فى الأصل سوى روح واحدة ، كذا كان ظهورى وظهورك ، فمن الخطل الكلام عنى وعنك ، فقد بطل فيما بيننا كلمة أنا وأنت »

ويقول أيضاً :

« لست أنا ولست أنت ، كما أنك لست أنا ، فإنى أنا وأنت فى وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معاً . وبسببك أيا جلال . . . أشعر بضيق وحيرة ، لا أدرى إذا كنت أنا أو إذا كنت أنت » .

وعندها هذه التجربة العميقة يلتقى كل المتصوفة الذين يهبهم الله فرصة بلوغ هذه الغاية السامية . . . دون اعتبار لدين أو مكان أو زمان . . .

وهذه القديسة تريزا تعبر عن هذه الحالة فتقول :

« فى الفترة التى تتحد الروح ، تتجرد الروح من كل شعور ، وإذا استطاعت أن تشعر فهى لا تشعر بشىء معين ، فلا حاجة بها إلى حيلة لحجز العقل عن التفكير لأنها تظل مأخوذة فى سكينتها حتى لتجهل ما تحب وما تريد أو هى بالإيجاز فى حكم الميتة بالنظر إلى أشياء هذه الدنيا ولا تعيش إلا فى الله » .

وتقول كريستيان شلدرب فى وصف الحالة نفسها :

« هى السعادة بغير مشاغل ولا علاقة ، فى انسجام مطلق لا تفكير فيه ، لست نفساً فردية بل أنا إذا مشيت مشيت ولا شىء غير مجرد المشى هناك ، لا رغبة ولا حاجة فى كل ما هناك ، وإنما هو شعور واضح بأنك أنت شىء واحد مع كل شىء ، فأنا فى تلك الحالة لست إلا كل شىء . . . أنا

النور ، أنا الثلج ، أنا ما أسمع وما أرى»[١] .

ولكن . . . إلى أى حد تتمشى فكرة الفناء مع تعاليم الإسلام ؟ . . . الواقع أنه لا يمكن القول أن فى القرآن أو فى الحديث ما يعبر صراحة عن هذه الحالة ، أو ما يشير إلى أن فرداً من الناس يستطيع أن يفنى فى الله ويتحد به . غير أن الصوفيين قد تعلقوا ببعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية وحملوها المعنى الذى يخدم فكرتهم ، ومن ذلك قوله تعالى:

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وقوله : « وهو معكم أينما كنتم » .

وقول النبي عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى :

« ما تقرب إلىّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً ، وبصراً ، فبى يبصر وبى يسمع » .

فقد اتخذ الصوفيون من هذه الآيات والأحاديث ما يؤيد رأيهم فى الفناء . وما يدعم غايتهم فى الاتحاد بالله والفناء فيه .

---

(١) استقينا هذين المثالين من كتاب « الله » للأستاذ عباس العقاد ص ٢٠٩ .

٦

المعرفة الصوفية

بعد هذا الطريق الطويل يصبح الصوفى متأهباً لأن يستقبل فى قلبه نور الحق . . . وهذا النور — كما يقول الغزالى — فى أول أمره غير مستقر كالقبضة من الضوء تجىء وتذهب ، ولعلها فى بعض الأحيان أن تتخلف . . . فإن عادت فهى حيناً مقيمة وحيناً لا تكاد . . . فإن أقامت فهى حيناً طويلة اللبث وحيناً قصيرته . . .

وقال أبو الحسين بن هند الفارسى : القلوب أوعية وظروف . . . وكل وعاء وظرف يصلح لنوع من المحمولات . . . فقلوب الأولياء أوعية المعرفة ، وقلوب العارفين أوعية المحبة ، وقلوب المحبين أوعية الشوق ، وقلوب المشتاقين أوعية الأنس . . . ولكل من هذه الأحوال آداب من لم يستعملها فى أوقاتها هلك من حيث يرجو النجاة . . .

والكمال فى الفيض والهبات لمن يثبت على الطريق . . . فهذا يصل إلى الغاية القصوى التى يتطلع إليها كل صوفى . . . ألا وهى التحقق بمعرفة الله . . .

قال إبراهيم القصار : المعرفة إثبات الرب عز وجل خارجاً

عن كل موهوم .

وقال إبراهيم بن يزدانياد : المعرفة هى صحة العلم بالله ، واليقين النظر بعين القلب إلى ما عند الله مما وعده وادخره . . .

وسئل أبو الحسين المزين عن المعرفة فقال : أن تعرف الله تعالى بكمال الربوبية وتعرف نفسك بالعبودية ، وتعلم أن الله تعالى أول كل شىء وبه يقوم كل شىء وإليه مصير كل شىء وعليه رزق كل شىء . . .

والمعرفة الصوفية بعبارة أخرى من عبارات الغزالى هى معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات ، إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله . والكون كله من أفعاله . وما يتجلى للقلب من المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وصفاته الباقيات وأفعاله وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة هو الجنة عند قوم ، وسبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، وعلى قدر ما تتسع معرفة الإنسان بذلك كله تكون سعة نصيبه من الجنة .

وللعارف علامات ، وله أحوال لا يشاركه فيها غيره . . .

قال ذو النون المصرى : العارف كل يوم أخشع ، لأنه كل ساعة أقرب .

وقال أيضاً : العارف لا يلزمه حالة واحدة إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

وسئل شقيق البلخى : بأى شىء يعرف بأن العبد واثق بربه ؟ فقال :

يعرف بأنه إذا فاته شيء من الدنيا يحسبه غنيمة وإذا أبطأ عليه شيء من الدنيا يكون أحب إليه من أن يأتيه . . .

وسئل أبو اليزيد البسطامى : ما علامة العارف ؟ فقال : ألا يغتر من ذكره ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره . . .

وقال أيضاً : العارف همه ما يأمله . . .

وقال معروف الكرخي : ليس للعارف نعمة وهو فى كل نعمة . . .

وقال يحيي بن معاذ الرازى : أهل المعرفة وحسن الله فى الأرض ، لا يأنسون إلى أحد . . .

وقال منصور بن عمار : إن الحكمة تنطق فى قلوب العارفين بلسان التصديق . . .

وسئل الجنيد عن العارف فقال : من لم يأسره لحظه ولا لفظه . . .

وشغل العارف — كما يقول شاه الكرمانى — بثلاثة أشياء : بالنظر إلى معبوده مستأنساً به ، والملاحظة لمننه وفوائده شاكراً له ، والتذكر لذنبه معترفاً به ومنيباً تائباً إليه . . .

وقال محمد بن الفضل البلخى : العارف يدافع عيشه يوماً بيوم ، ويأخذ من عيشه يوماً ليوم . . .

ومعرفة الله تؤدى بالعارف إلى تعظيم كل من يعرف ربه . . .
قال أبو جعفر بن سنان : لا يعظم حرمات الله إلا من عظم الله ولا يعظم الله إلا من عرفه ، ومن عرفه خضع له وانقاد فى

خضوعه ، وخضوعه يتولد من تعظيمه لربه . فإذا عظمه صغر كل ما سواه عنده ، فيتولد له من ذلك تعظيم حرمات المؤمنين . . . وذلك لعظيم حرمة الله فى قلبه أن يعظم كل من يطيع ربه أو يعرفه . . .

وأهل المعرفة كما يقول إبراهيم بن شيبان : لا يغيبون عنه قياماً ولا قعوداً ولا نائمين ولا منتبهين ، ولهم أحوال يشتمل عليهم أنوار قربه فيغرقون فيها ولا يتفرغون إلى الخلق وما هم فيه . . . وتلك أحوال الدهشة تراهم دهشين متحيرين ، غائبين حاضرين . . . غائبين بأسرارهم ، حاضرين بأبدانهم . . .

والله تعالى طيب الدنيا للعارفين — كما يقول أبو سعيد بن الأعرابى — بالخروج منها ، وطيب الجنة لأهلها بالخلود فيها . فلو قيل للعارف : إنك تبقى فى الدنيا لمات كمداً ، ولو قيل لأهل الجنة إنكم تخرجون منها لماتوا كمداً ، فطابت الدنيا بذكر الخروج منها ، وطابت الجنة بذكر الخلود فيها . . .

والصوفيون سعداء بمعرفتهم . . . سعداء بما تهتك أمامهم من حجب ، فشاهدوا ربهم شهوداً عينياً ، وأحاطوا بذاته إحاطة كاملة تندرج تحتها معرفتهم بكل الحقائق معرفة يقينية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . .

ولكن . . . هل كل من سلك الطريق ، وجاهد نفسه وبلغ شتى المقامات ، يصل إلى هذه الغاية الجليلة ؟ ويتحقق بمعرفة الله ويحظى بالفيوضات والمكاشفات ؟

قال أبو بكر الطمستانى وقد طلب منه رجل أن يوصيه : الهمة . . . الهمة . . . فإنها مقدمة الأشياء وعليها مدارها وإليها رجوعها . . .

وقال محيي الدين بن عربى : إن الفتح على قدر الهمة . . .

ومعنى ذلك أن الطاقة الروحية للصوفى هى التى تحدد نصيبه من المعرفة . . .

وفى هذا يقول أبو عبد الله السترغبذى : إن الله وهب لكل عبد من معرفته مقداراً ، وحمله من البلاء على مقدار ما وهب له من المعرفة ، لتكون معرفته عوناً له على حمل بلائه . . .

فليس من شك فى أنه كما تختلف الطاقات الحسية ، والعقلية للناس ، فإن الطاقات الروحية لهم تختلف أيضاً . . . ويترتب على هذا الاختلاف تباين فى الإدراك والتفكير بالنسبة لسائر الناس . . . وتباين فى الكشف والإلهام بالنسبة للصوفية . .

والأمر متوقف قبل كل شيء على إرادة الله ، فهو الذى يمنحه لمن يشاء ويقبضه عمن يشاء . . .

سئل ذو النون المصرى : بم عرفت ربك ؟

فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى . . .

وصفوة القول أن الصوفية أصحاب نظرية فى المعرفة . . . ووسيلتهم فى بلوغ هذه المعرفة ليست الحواس وليست العقل ، ولكنها الكشف والإلهام ، « انظر في قلبك لأن ملكوت السموات

والأرض فيك » . وموضوع معرفتهم ليس العلم العادى الذى يحصله الناس بحواسهم وعقولهم . ولكنه كما يقول صاحب الرسالة القشيرية : « المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، . ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريئاً ومن المساكنات والملاحظات نقياً ، وأدام فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة ، وفى الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل » .[1]

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٨٣ – ١٨٤ .

٧
الغزالى

يرجع الفضل إلى « الغزالى » فى إقامة التصوف الإسلامى على دعائم فكرية واضحة وقد امتد تأثيره حتى شمل مفكرى المسيحية ومتصوفتها . . .

فقد كانت شخصيته من الجلال والقوة ، ومذهبه من العمق والدقة بحيث استوعبا عصره الذى عاش فيه ، وسيطرا على قلوب معاصريه ، وأثرا فيمن جاء بعده من أهل السنة ، حتى أصبح للتصوف خطره العظيم فى الحياة الروحية الإسلامية بعد أن كان الكثيرون قد أخذوا أنفسهم بالازورار عنه والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن إليه ، وإلقاء الشبهات على تعاليمه . . فقد كان ينظر إلى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو إليه الصوفية من بعض التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد وإسقاط التكاليف فحسب ، وإنما هى ناشئة أيضاً عما كان هنالك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين العقائد الشيعية والإسماعيلية الباطنة . وظل التصوف زمناً منظوراً إليه هذه النظرة حتى كان الغزالى ، فإذا هو يدعو الناس إلى الرجوع إلى دينهم الصحيح ، ويرغبهم فى التصوف ، ويبين

لهم أن هذا هو الطريق الحق الموصل إلى معرفة الحق . ولقد أعان الغزالى على أداء رسالته هذه ما كان يمتاز به من حرارة الإيمان وبلاغة البيان وبراعة الأسلوب وقوة الحجة[١] .

وقد ألف الغزالى نيفاً ومائة كتاب غطت كل المسائل الإسلامية ومن هذه المؤلفات . . . إحياء علوم الدين ، والوجيز والوسيط والبسيط فى الفقه الإسلامى ، والمستصفى فى قواعد علم الكلام ، ومقاصد الفلاسفة فى الفلسفة ، ومعيار العلم فى المنطق ، وتهافت الفلاسفة فى بيان قصور الفلسفة عن إدراك الحقائق ، والمنقذ من الضلال الذى شرح فيه أزمة الشك التى مر بها ، وكيف اهتدى إلى نور اليقين ، وفضائح الباطنية الذى ينعى فيه على إمعية التفكير .

وقد سبق الغزالى ، الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت فى شكه بنحو ألف عام ، فقد تعرض كما تعرض ديكارت من بعده لفترة من الشك المنهجى الذى يتخذ من الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة المطلقة ، فقد كان التعطش إلى إدراك الحقائق هدفه منذ صباه ، فشك فى قيمة العقل ، وفى قيمة الحواس وفيما عسى أن توصل إليه من معرفة ، وانتهى إلى أن المعرفة الحقة لا تأتى عن طريق المناقشات المنطقية أو عن طريق تطبيق الفقه الشكلى ، ولا بالمنظر العقلى للفلسفة ، إنما المعرفة شىء يصل إليه الفرد بعد جهد وطول عناء ، ورياضات

---

(١) دكتور مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ص ١٢١ .

للنفس حتى ترتفع عن أدران الشهوات ، وتنقطع كل صلة لها بالمادة فتدق وتصفو وتتهيأ لها تجربة أشد ما تكون عمقاً ، وهى فى حالة من الوجد والانشراح . . . فيتحقق لها الكشف الإلهى ، وتحظى بنور المعرفة يقذفه الله فى القلب ، فيدرك السالك لهذا الطريق الطويل ، الآخذ نفسه بشتى ضروب الرياضات والمجاهدات ، الله إدراكاً مباشراً ، ويعرفه حق معرفته ، وتندرج تحت هذه المعرفة ، معرفته بجميع الحقائق الأخرى معرفة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها . . .

وقد درس الغزالى مذاهب المتكلمين ، وهم فئة اهتمت بدراسة العقائد الإسلامية كالتوحيد والعدل الإلهى والجبر والاختيار ، ولكنه ألفاها ظاهرة التناقض والفساد ، فيمم شطر المذاهب الفلسفية المختلفة ، يتناولها بالدراسة والتعمق . . . ولكنها ظلت فى نظره قاصرة عن تحقيق ما كان يصبو إليه من كشف الحقيقة المطلقة ، والوصول إلى المعرفة اليقينية ، فهاجم الفلسفة فى كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » . . . ثم شيئاً فشيئاً راحت غمامة شكه تنقشع . . . ومع انقشاعها انتهى به الأمر إلى أن المعرفة الحقة هى معرفة الله وصفاته وأفعاله . . . والوسيلة إلى هذه المعرفة ليست الحواس وليست العقل ، إنما هى فى « التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال على الله بكنه الهمة » ، أى باتباع طريق الصوفية الذى يقوم على الفقر والزهد فى الدنيا وملذاتها وشهواتها ،

وفى صفاء النفس وإخضاعها بالمجاهدة والرياضة . . . فتهتك الستر من أمام القلب ، وتزول عنه الحجب . . . فيشهد العبد ربه شهوداً عينياً مباشراً ويحيط بذاته العلية إحاطة كاملة . . .

ولم يكن شك الغزالى من النوع الهدام الذى يبتغى الشك لذاته . . . إنما كان شكه وسيلة إلى غاية هى اليقين . . . وهو فى شكه فى قيمة الحواس والعقل لم يلق إليها بالتهم جزافاً ، إنما كان اعتراضه على قدرتها فى الوصول إلى اليقين قائماً على الحجة والدليل فاستطاع أن يقلل من قيمتها وينال من مكانتها . . فهو يقول مثلا فى حديثه عن الحواس : « فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ؟ ، وأقوى الحواس حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته »[١] .

وبعد أن أصاب الغزالى الحواس فى الصميم . . . وجه ضرباته إلى علم الكلام . . . فحصله ، وطالع كتب المحققين

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧١ .

منهم ، وصنف فيه ما أراد أن يصنف ، فصادفه علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصوده هو ، ذلك لأن مقصود علم الكلام حفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلماً ، ولقن عقيدته تلقيناً من أن يشوشها عليه المبتدعون والمخالفون بأن يرد عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويلزمهم محالات وشناعات تشككهم فيما هم عليه . لذلك كان أكثر خوض علماء الكلام – كما يقول الغزالى – فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . فأين العلم ؟ ؟ . . .

إن علم الكلام على هذه الصورة لا يعد علماً بالمعنى الصحيح ، لأنه لا يخلق حقيقة وعلماً يقينياً فى إنسان نشأ خالياً منهما أوشك فيهما . . . وهو لهذا – بعبارة الغزالى – « قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا ، فلم يكن الكلام فى حقى كافياً ، ولا لدائى شافياً ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلاف الخلق ، ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ، لكن حصولا مشوباً بالتقليد فى الأمور التى ليست من الأوليات [١] » .

وبعد أن أبان الغزالى قصور علم الكلام عن بلوغ الغاية التى يرجوها . . . نظر إلى الفلسفة فنعى عليها عدم قدرتها على الوصول إلى اليقين فيما يتعلق بالإلهيات . . . فإن براهينها فى هذه

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

الناحية ليس لها قوة البراهين الهندسية . لذلك فهو يقول : « ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً عن جميع المعضلات[١] »

أين إذن طريق الخلاص من أزمة الشك الخانقة ؟ . . . وأين وسيلة المعرفة الحقة التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ؟

لقد وجد الغزالى فى طريق الصوفية منقذه وهاديه فقال : « ابتدأت بتحصيل علومهم ، من حيث مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى اليزيد البسطامى — قدس الله أرواحهم — وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالعلم والسماع[٢] » .

فماذا وجد الغزالى ؟ . . .

لقد ظهر له أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . . . وكم من الفرق بين أن يعلم الإنسان حد الصحة ، وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ، فكذلك فرق

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . . .

وعلم أيضاً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصله ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك .

ونظر الغزالى إلى الأمر كله . فوجد أنه يقوم على قطع علاقة القلب عن الدنيا ، والتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، وذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . . .

فماذا بعد ؟ . . . لقد لاحظ الغزالى أحواله ، فإذا هو منغمس فى العلائق وقد أحدقت به من كل جانب . ولاحظ أعماله ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا هو مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة — كما يقول — فى طريق الآخرة ، ثم تفكر فى نيته فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت[1] . . .

كيف السبيل إلى الخلاص إذن من علائق البدن وأهواء النفس ؟

يقول الغزالى : « فلم أزل أتفكر فى الأمر مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأصل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلاً

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

وأؤخر أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل . . . الرحيل . . . فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل . وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أنت أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص .

والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليك نفسك ولا تتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلى ؛ فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقدة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ولا تنهضم لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء

طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل القلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج .

ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال ، والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أريد فى نفسى سفر الشام حذار أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات وظن من بعُد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوى وليس له سبب إلا عين أصابت الإسلام وزمرة العلم ، ففارقت بغداد[١] » .

ولما عزف الغزالى عن الدنيا ، وأحب الخلوة والعزلة . . .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

ألقى الله نور الحقيقة فى قلبه ، فانتشى وحمد الله أن ألهمه طريق الصوفية فهم« السالكون لطريق الله تعالى خاصة : وسيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق » .

* * *

وبعد أن هدأت موجة الشك التى تعرض لها الغزالى . وطابت نفسه للطريق القويم الموصل إلى أسمى الغايات . . . راح يرسم للطرق الأخرى حدودها وغاياتها . . . « فالعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدينوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات . والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله . وهما علمان متباينان ، أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ، قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ، ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالاً فى أكثر علوم الآخرة ، لأن قوة العقل لا تفى بالأمرين جميعاً فى الغالب ، فيكون أحدهما مانعاً من الكمال فى الثانى . . . فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ،

المستمدون من القوة الإلهية التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق بها.[1] »

ثم يفرق الغزالى بين علوم الأولياء والأنبياء وعلوم العلماء والحكماء فيقول : « للقلب بابان ... باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى عالم الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة ، وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك ، وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فيعلم علماً يقينيًّا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل وكان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس . فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا : وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكماء يأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك[2] » .

ولكن ، ما هو الضمان فى الوصول إلى معرفة حقائق الأمور ؟ يصرح الغزالى بأن كل قلب صالح بالفطرة لمعرفة الحقائق ،

---

(١) الجزء الثامن من إحياء علوم الدين ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

لأنه أمر ربانى شريف فارق سائر جواهر الموجودات بهذه الخاصية والشرف .

وقد صرح « ديكارت » بعد ذلك بحوالى ألف عام بما ذهب إليه الغزالى فقال بأن العقل الذى يوصل الإنسان إلى الحدس — أساس المعرفة عنده — هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ! !

فإذا كان قلب كل آدمى مستعد للوصول إلى الحقائق فى الأصل ، فلم يصل البعض إليها ويقف الكثيرون دونها ؟ . . .

يقول الغزالى رداً على هذا السؤال : « القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب من العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة : نقصان فى ذاته ، كقلب الصبى فإنه لا تنجلى له المعلومات الناقصة . ولكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً » أى ، حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب ، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة ، لكن عاد القلب إلى ما كان قبل السيئة ، ولم يزدد بها نوراً ، فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة فيه . فليست المرآة التى تتدنس

ثم تمسح بالمصقلة كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق . فالإقبال على طاعة الله.والإعراض عن مقتضى الشهوات ، هو الذى يجلو القلب ويصفيه. ولذلك قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ــ وثالث هذه الأسباب ــ أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح ،وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق ،لأنه ليس يطلب الحق : وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها . وإذا كان تقييد الهم بالأعمال الصالحة : وتفصيل الطاعات مانعاً من انكشاف جلية الحق ، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها ، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى ؟

ــ ورابع هذه العوائق ــ الحجاب ، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه من الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين

حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقنه من ظاهر التقليد، وهذا أيضاً ،حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين والمتعصب للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المفكرين فى ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق .

ـ والسبب الخامس ـ الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب ، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهود ، إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيباً مخصوصاً ، يعرفه العلماء بطريق الاعتبار . فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التى ليست نظرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى ...... فكذلك كل علم ، فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ،فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم[1] » .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

وعلى هذا الأساس فإن الناس ليسوا سواسية فيما يجب أن يسعوا إلى تحصيله من معارف . . . فهناك ثلاثة مراتب لليقين : يقين العوام الذين لم يتخلصوا من قيود الحس ، ولم يألفوا الرياضات والمجاهدات ، ولم يعرفوا كيف يستغلون ملكة التفكير عندهم ، وهؤلاء يجب أن يقفوا عند نصوص الكتاب والحديث ، لا يؤولونها ، ولا يسبرون غورها .

أما اليقين الثانى فهو يقين العلماء والفلاسفة الذين يصلون إليه عن طريق الاستنباط . واليقين الثالث هو يقين العارفين وطريقهم ليس الحواس وليس العقل ، ولكنه التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله بكنه الهمة ، وهذا هو طريق الصوفية . . .

وكما تتفاوت هذه المعارف من حيث الحدود ، فإن السعادة الناتجة منها تتفاوت أيضاً . . . وأسماها بلا شك ، وأعمقها بلا جدال ، هو السعادة المنبثقة من المعرفة الصوفية ، لأن موضوعها أسمى الموضوعات وأجلها شأناً وأخطرها قيمة ، وهذه السعادة أدوم وأبقى من غيرها ولا تبطل بالموت ، بل إنها فى الموت تكون أشد وأقوى ، إذ أن ما ينكشف للقلب من الأنوار فى الموت أكثر سناء ، وأوفر بهاء ، لأنه عندئذ يكون قد خرج من الظلمات إلى النور .

٨
التصوف والشريعة

لا يستطيع المفكر المنصف أن يجد خروجاً فى التصوف عن أحكام الشريعة . وهى كل ما يتعلق بالكتاب والسنة .

وعند ما نذكر التصوف فإنما نقصد به التصوف الصحيح خالياً من كل ما دخل عليه فى بعض العصور من أوهام وخرافات ليست من حقيقته فى شىء . . .

ونحن نجد فى كتب الصوفية ومأثوراتهم ما يؤيد هذا الكلام وما يدل دلالة قاطعة على أن الصوفيين يجلون الشريعة ويعتبرونها أساس رياضاتهم ومحور أفكارهم . . . فأصل التصوف — كما يقول واحد من الصوفية وهو أبو القاسم النصراباذى — ملازمة الكتاب والسنة . ويقول أبو بكر الطمستانى « الطريق واضح والكتاب والسنة بين أظهرنا » . . .

ويذهب عبد الوهاب الشعرانى إلى أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنهما نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها .

ثم يقرر الشعرانى ، أن التصوف إنما هو لذلك زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو فمن جعل علم التصوف عملا مستقلا صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق ، كما أن من جعل علم المعانى والبيان عملاً مستقلا فقد صدق ، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق ، لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية . . .

وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله عز وجل إلا من تبحر فى علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفى فقيه ، ولا عكس .

وإذا كان التصوف عبارة عن منهج أساسه رياضة النفس ومجاهدتها ، وغاية تصبو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فإن السنة والفريضة تحققان منهج الصوفى وغايته ، فقد سئل أبو اليزيد البسطامى عن السنة والفريضة فقال : « السنة ترك الدنيا والفريضة الصحبة مع المولى ، والكتاب كله يدل على صحبة المولى ، فمن تعلم السنة والفريضة فقد كمل » .

وقال أحمد بن أبي الحوارى : « من عمل بلا اتباع السنة فباطل عمله » .

وقال أبو القاسم الجنيد : « الطريق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه » .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق » .

وسئل أبو على الجورجانى : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : الطرق إليه كثيرة ، وأصح الطرق وأعمرها وأبعدها عن الشبه اتباع السنة قولا وفعلا ، وعزماً وعقداً ونية ، لأن الله تعالى يقول : « وإن تطيعوه تهتدوا » ، فسأله السائل : كيف الطريق إلى اتباع السنة ؟ فقال : مجانبة البدع واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام ، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريق الاقتداء والاتباع ، بذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عز وجل : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

وقال أبو العباس بن عطاء الأدمى : « من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم فى أوامره وأفعاله

وأخلاقه ، والتأدب بآدابه قولاً وفعلاً وعزماً وعقداً ونية » .

فالشريعة فى الطريق الصوفى هي الأساس ، وهى نقطة البدء التى ينطلق منها الصوفى نحو الغاية السامية التى يثاب على ما يتكبده فى سبيل الوصول إليها من مشاق بنيل الحقيقة ، وكسب المعرفة التى يعز اكتسابها على غيره من الناس .

ولكن الشريعة التى نقصدها هنا ليست القسم الذى اختص به الفقهاء، فدونوا فيه الأحكام الظاهرة التى استخلصوها من القرآن والحديث ... ولكن الشريعة التى اختص بها الصوفية ، تمثل القسم الباطن منها أى ما يعنى بأحوال القلب ، ويدل على الأعمال الباطنه ويبين الطريق إليها وكيفية التحقق بالكمال فيها ، فقد أحل الصوفية محل مذاهب الفقهاء والمتكلمين التعمق فى جوهر النفس ، وتحريرها من شوائب المادة وأدرانها مما ييسر لهم الإدراك المباشر لعين اليقين بتركيز فيوضاتهم الباطنية ومواهبهم اللدنية فى حقيقة الذات الإلهية المتفردة بالوجود .

ولذلك قال واحدمن الصوفية وهو رويم بن أحمد البغدادى :

« قعودك مع طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وهذه الطائفة قعدت على الحقائق ، وطالب الخلق أنفسهم بظواهر الشرع ، وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق . فمن قعد معهم وخالفهم فى شيء مما يتحققون فيه ، نزع الله نور الإيمان من قلبه » .

ومعني ذلك أن الصوفية مع اعتمادهم على الشريعة إلا

أنهم اهتموا بجوانيتها . . . ويبدو ذلك إذا ما عرفنا نظرتهم إلى بعض الفرائض كالصلاة والحج والصوم مثلا .

قال أبو عبد الله الروزبارى : « رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى : أى شىء أصح فى الصلاة ؟ فقلت : صحة القصد ، فسمعت هاتفاً يقول : رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد أتم » .

وقال رجل لأبى سليمان الدارانى : « صليت صلاة فى خلوة فوجدت فيها لذة ، فقال الدارانى : أى شىء لذك منها ؟ فقال : حيث لم يرنى أحد . فقال : إنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق » .

وجاء رجل إلى الجنيد بعد أن أتم حجه ، فقال له الجنيد : « أرحلت عن جميع ذنبك حين رحلت عن دارك ؟ فقال : لا ، قال : فأنت لم ترحل . ثم قال : وبعد كل مرحلة نزلت حيث تتلبث الليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟ قال : لا ، فقال الجنيد: فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة، ثم سأله : وحين لبست ثوب الإحرام فى موضعه ، هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثيابك ؟ ، قال : لا ، فقال الجنيد : فأنت لم تحرم . ثم قال : وحين وقفت بعرفة . هل تأملت فى الله لحظة واحدة ؟ . قال : لا . فقال : فأنت لم تقف بعرفة » .

« ثم قال : وحين أفضت إلى المزدلفة وقضيت مناسكك ، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟ . قال الرجل : لا ،

فقال الجنيد : فأنت لم تفض إلى المزدلفة . ثم قال : وحين طفت بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر ؟ . قال : لا ، قال : فأنت لم تطف بالبيت » .

« ثم قال : وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت الصفاء والمروءة ؟ . قال : لا ، قال الجنيد : فأنت لم تسع . . .

ثم قال : فلما جئت إلى منى ، هل ذهبت عنك جميع المنى ؟ . قال : لا ، قال : فأنت لم تزر منى . . . ثم قال له : فلما وصلت إلى المنحر ونحرت القربان ، هل نحرت أسباب الدنيا ؟ . قال : لا . قال : فأنت لم تنحر . . . »

« ثم قال له : فلما رميت الجمار ، هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية ؟ . قال : لا ، قال الجنيد : فأنت لم ترم الجمار ، بل ولم تؤد على ذلك حجاً » .

والصوم عند الصوفية ليس الامتناع عن الطعام والشراب وقضاء الشهوة فحسب ، فهذه كلها أمور ليست من جوهر الصوم بل هى من ظاهره . . . أما الصوم الصحيح فهو كما يعبر الغزالى فى الربع الأول من إحياء علوم الدين « صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية » .

فحجر الزاوية فى صيام الصوفية هو محاسبة النفس ، وتطهيرها ، ومراقبة القلوب وتنقيتها . . . وترك الأكل والشرب

هو أهون ما فى الصوم، فلا يستقيم لعبد صوم بمجرد تركهما، بل لا بد له من أن يتبع بذلك غض البصر فلا ينظر إلى ما حرمه الله ، وحفظ اللسان فلا يلفظ إلا بذكر الله ، وآيات كتابه ، وأحاديث نبيه . . . وكف السمع فلا يصغى إلى القيل والقال ، وكف اليد ، فلا تتحرك إلا لمرضاة الله ، وكف الرجل فلا تسعى إلا للخير ، وكف العقل فلا يفكر إلا فى الله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وكف القلب فلا يتردى فى مهاوى الزيغ ، ورغبات الدنيا ، فإن الحقيقة لا تنزل قلباً به ذرة من هم الغد . . .

فإذا كان هذا هو معنى الصوم عند الصوفية ، وهذه هى مقوماته فما أصدقهم حين ينشدون فى توديع شهر رمضان :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا
ونويت من بعد المقـــام رحيلا
وأقمت فينـــا ناصحاً ومؤدباً
وشفيت منـــا بالفؤاد غليـــلا
نبكيك يا شـــهر الصيام بأدمع
تجرى فتحكى فى الخدود سيولا
أســـفاً على الأنس الذى عودتنـــا
وصـــنيع فعـــل لا يزال جميلا
شهر الأمانة والصيانة والتقى
والفوز فيـــه لمن أراد قبولا

تبكى المساجد حرة وتأسفاً
إذ عطلت من أنسه تعطيلا
فيه الجنان تفتحت لقدومه
وتزينت ولدانها تزيينا
وتفيأت أشجارها بظلالها
وقطوفها قد ذللت تذليلا

وهكذا يتضح لنا ، أن الصوفية يجلون الأحكام الشرعية ، إلا أنهم يتناولونها من حيث هى معان روحية يجب أن ينعكس أثرها فى القلوب ، ورياضات جوانية لا تقف عند مجرد المحسوسات بل تتعدى ذلك إلى تنقية النفس ، وتطهير الروح ، وكف الجوارح . . . فتصبح هذه الأحكام فى نهاية الأمر لا مجرد أشكال أو رسوم ، بل شيئاً داخلياً يمس حياة الروح والقلب ، ويقود إلى عالم النور والملائكة . . .

٩

التصوف والمجتمع

بعد أن استعرضنا معالم الطريق الصوفى ، ووقفنا على رياضات الصوفية ومجاهداتهم ونزعاتهم الروحية الخالصة التى تهدف إلى التحقق بمعرفة الله عز وجل ، يحق لنا أن نسأل : ماذا أفاد المجتمع من تعاليمهم . وماذا يمكن له أن يفيد منها . . .

ولعل من الخير أن نبدأ أولاً بمناقشة أهم ما يؤخذ على الصوفية . . . فإن أول ما يؤخذ عليهم أنهم لم يشجعوا العمل والسعى من أجل الرزق ، وأمعنوا فى التوكل غاية الإمعان ، بحيث أصبح الصوفى فى نهاية الأمر عضواً لا ينتج ولا يفيد ، ولا يقدم فى سير الأمور أو يؤخر . وقد رأينا أمثلة لهذا التوكل ، وعرفنا كيف يفضلون الفقر على الغنى ، والعزلة على السعى ، والتوكل على الحيطة ، والزهد فى الدنيا على الإقبال عليها . . .

وهم إلى جانب ذلك أو نتيجة لذلك قد حرموا على أنفسهم الزواج ، على أساس أنه من العوائق التى تشغلهم عن المضى فى طريقهم الروحى ، فلا يعقل أن يقعد رجل عن طلب الرزق ، وهناك من يجب عليه إعالتهم وتوفير العيش لهم . . . وهكذا نسيطع أن نقول إن التصوف ينطوى على نظرة عداء

للدنيا وإعراض عنها ، وقمع لشهوات البدن وأهواء الحس من أجل تنمية الروح وتهيئة الجو الذى تستطيع فيه النفس أن تسلك طريقها إلى غايتهم القصوى .

والمتصوفة يستندون فى منهجهم هذا على أسس من القرآن والسنة على اعتبار أن التصوف قد نبع من ضمير الإسلام ، واستمد مقوماته مما جاء فى الكتاب الكريم ، ومما أخذ به النبى ومسلمو الصدر الأول أنفسهم من زهد وقناعة وتبتل .

ومن ذلك قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » .

وقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقوله : « وتوكل على الحى الذى لا يموت » .

وروى ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقياك منه ، فقال : مالى وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ومما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحبب إلى الناس صحبة الفقراء . . . وفى ذلك يقول عون بن عتبة : « كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هماً منى ، كنت أرى دابة خيراً من دابتى ، وثوباً خيراً من ثوبى . فلما سمعت قول رسول الله إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فذلك أجدر ألا تزدردوا نعمة الله عليكم .

قال : لما سمعت ذلك صحبت الفقراء واسترحت » .

وروى ابن هشام عن زيد بن أسلم قال : لما استعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة ، رزقه كل يوم درهماً، فقام وخطب الناس فقال :

أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهماً كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد . . .

وهكذا ، نجد فى القرآن والسنة وسيرة المسلمين الأوائل الأساس لبعض ما انتهجه الصوفية . . .

ولكنا لا نستطيع أن نقول إن القرآن والسنة قد دعيا إلى ما أخذ به الصوفية أنفسهم من انقطاع ، واعتكاف ، وقعود . . . وحرمان .

فقد دعا القرآن إلى العمل ، وحث الناس على السعى ، واستغلال كل الإمكانيات التى يسرها لهم ، سواء كانت هذه الإمكانيات كامنة فيهم ، أو فى الأرض التى يعيشون فوقها : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ، « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » .

وقد جاء أناس إلى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام يسألون عن عبادته فيما بينه وبين الله ، تلك العبادة التي غفر الله له بها ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، فقال أحدهم : « إني لا آكل اللحم أبداً » . وقال آخر : « وأنا لا أتزوج النساء » . وقال ثالث : « وأنا لا أنام على فراش» ، فبلغ أمرهم إلى النبي عليه السلام ، فخرج إليهم غاضباً وقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، وإني لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع » وقال : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : " يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً " . وقال : " يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ".

فلم يدع إلى الحرمان من متع ما خلق للناس ، بل هو لم يدع إلى العزوف عن التجمل أيضاً . . . وفي ذلك يقول تعالى :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربو ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

فالإسلام لم يدع إلى احتقار الدنيا أو العزوف عن طيباتها، ولم يهمل مطالب الجسم وحاجات البدن ، بل هو اعترف بأن الإنسان جسم وروح . . ولكل من الجسم والروح مطالبة . . . ولا تقف حاجات البدن حائلا بين الإنسان وربه . . . ما دامت هذه الحاجات مما يتفق مع الحدود التي يرسمها الروح المهذب .

ونحن إذا حاولنا أن نقيم الصوفية من خلال هذه النظرة . . . لوجدنا أنه من الإنصاف أن نبدأ أولا ببيان أمرين نعتقد أنهما على جانب كبير من الأهمية. وأول هذين الأمرين ، أن الصوفيين أنفسهم كانوا ينظرون إلى طريقتهم فى التهذيب الروحى ، وإلى نزعاتهم التى قد تختلف أحياناً مع الطبيعة البشرية وتحول بينهم وبين أن يكونوا عوامل بناء وخلق فى المجتمع ... كان الصوفيون ينظرون إلى ذلك على أنه منهج خاص بهم يكفل لهم الوصول إلى غايتهم ، لا أسلوب للسلوك يجب فرضه على من سواهم من الناس .

وقد رأينا كيف أن طريق التصوف الصحيح لم يكن مفتوحاً أمام الجميع ، وكيف كان الشيخ يخضع مريديه لفترة طويلة من الامتحان القاسى العنيف حتى يتبين صدق عزمهم ، وقوة تحملهم لأعباء الطريق . فإذا وضح له ذلك منهم وخرجوا من الامتحان أصلب ما يكونون عوداً ، أجاز انضمامهم إليه ، وخلع عليهم (المرقعة) التى تدل على أنهم قد اجتازوا الامتحان بنجاح ؛ وأن لهم من صدق نواياهم وقوة عزيمتهم وشدة شوقهم

إلى الله تعالى ما يمكنهم من المضى فى الطريق إلى نهايته . . .

فالصوفية إذن لم يقصدوا إلى أن يكونوا حملة لواء دعوة عامة . . .

يبدو ذلك من قول رويم بن أحمد البغدادى لمحمد بن خفيف عند ما قال له هذا : أوصنى ، فقال رويم : أقل ما فى الأمر بذل الروح ، فإن أمكنك الدخول مع هذا فادخل فيه وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية . . .

وهم عندما صرحوا بأن منهجهم هو أنبل المناهج ، ومعرفتهم التى يصلون إليها عن طريق هذا المنهج هى أسمى المعارف ، لم يغمطوا حق أنماط المناهج والمعارف الأخرى ، ولا هم حقروا من شأنها . . . حقيقة إنهم اعتبروها قاصرة عن الوصول إلى ما يصلون إليه ، ولكنهم لم يفترضوا أن كل إنسان يستطيع أن يصل إلى غايتهم ، ومن هنا كانت فترة الامتحان الشاقة التى يفرضها الشيخ على مريديه ، وكان أيضاً تصويرهم للحدود التى يجب أن تلتزمها كل طبقة من الناس : فطبقة العوام يجب أن تقف عند ظاهر الشرع ، والمتكلمون والفلاسفة يجب أن يقفو عند حدود العقل وإمكانياته . وهم على أية حال لم يهونوا من أمر أى من الطبقتين ، فالأمر لا يعدو أن يكون فضلاً من الله يعطيه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء . . . فلا وقوف العوام عند ظاهر الشرع يهون من أمرهم ، ولا وقوف الفلاسفة عند حدود العقل يدعو إلى الاستخفاف بهم . . . وهذا واحد

من الصوفية هو أبو بكر الوراق يذكر عوام الخلق بالخير ، فيقول : إنهم هم الذين سلمت صدورهم ، وحسنت أعمالهم ، وطهرت ألسنتهم ، ويفرق بينهم وبين الغوغاء الذين خلوا من هذه الصفات .

ومن ناحية أخرى ، نجد الصوفية يبيحون للناس ما حرموه هم على أنفسهم فهم مع قعودهم عن الكسب لم ينكروا حق الناس فيه ، ومع بغضهم للإنفاق والادخار لم يحرموهما عليهم . ولكنهم وضعوا لكل ذلك حدوده وآدابه ، فالفرد يجب أن يرعى فى كسبه مقدار حاجته فى الملبس والمسكن والمطعم ، وألا يشغله الكسب عن تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وأن يترك الحلف والإطراء لسلعته ويتجنب الكسب الحرام . . . وفى هذا يقول سرى السقطى : خير الرزق ما سلم من خمسة ، من الآثام فى الاكتساب ، والمذلة والخضوع فى السؤال ، والغش فى الصناعة وأثمان آلة المعاصى ، ومعاملة الظلمة . . .

ويوصى الصوفية بالاقتصاد فى الإنفاق من غير تقتير ولا تبذير ، وعدم الالتجاء إلى الادخار بخلاً واستكثاراً . . . وهم جميعاً يكرهون البخل ويندون به . . يقول أبو على الجوزجانى : البخل هو ثلاثة أحرف . . الباء وهو البلاء ، والخاء وهو الخسران ، واللام وهو اللوم ، فالبخيل بلاء فى نفسه ، وخاسر فى سعيه ، وملوم فى بخله . . .

وليس المقصود بالبخل هو كف اليد عند الغنى . . .

ولكنه كما يقول أبو حمزة البزاز : ليس السخاء أن يعطى الواجد المعدم ، إنما السخاء أن يعطى المعدم الواجد . . .

وعلى الرغم من أن الصوفية ينكرون على أنفسهم كثرة الطعام ، ويحرمون بطونهم من أطايبه حتى قالوا : الجوع طعام الزاهدين والذكر طعام العارفين . . . إلا أنهم لم يدعوا الناس إلى ما أخذوا هم به أنفسهم ، بل فى مأثوراتهم ما يدل على أنهم يعتبرون من واجبات الضيافة تقديم الطعام الشهى للضيوف ، فهم يقولون : من إكرام الضيوف تعجيل الطعام لهم ، وأفضل ما قدم إليهم اللحم ، وخير اللحم السمين النضيج فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع لهم الطيبات . . .

وقد حرم أغلب الصوفية على أنفسهم الزواج ، على أساس أنه من العوائق التى تشغلهم عن المضى فى طريقهم الروحى ، فلا يعقل أن يقعد رجل عن طلب الرزق وهناك من يجب عليه إعالتهم ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التصريح بأن الزواج مما يمتاز به سائر الناس عنهم . . .

قال المكى : كان بشر بن الحارث يقول فى أحمد بن حنبل : فضل على بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى (١) .

وترتب على عدم إقبال الصوفية على الزواج عدم تمكنهم

---

(١) قوت القلوب : ج ٤ ص ١٥٣ .

من تكوين الأسرة وكان هذا أيضاً مما أخذ عليهم ، إذ أن هذا الاتجاه من شأنه لو اتسع نطاقه أن يقضى على المجتمع ، فليس يخفى أن الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع فإذا انصرف الناس عن تكوينها ، لتلاشى المجتمع وانحدر فى طريق الفناء . . .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلب الصوفية على الرغم من موقفهم هذا من الزواج والأسرة يحملون فى أعماقهم ميلاً إليهما . . . تدل على ذلك القصة التالية :

رأى رجل بشر بن الحارث فى المنام بعد وفاته ، فسأله عن حاله فقال :

عاتبنى ربى عز وجل فقال : يا بشر ما كنت أحب أن تلقانى عزباً . فسأله صاحب الرؤيا : ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال بشر : رفع فوق سبعين درجة فسأله الرجل : بماذا ؟ فقال : بصبره على بناته وعياله[١] . . .

فهم لم يحببوا الناس فى الإعراض عن الزواج ، بل هم يصرحون بأن الله يبغض أن يعرض عباده عنه ، وهو لذلك يرفع المتزوجين درجات فوق من لم يتزوجوا ، ويحب فى عباده صبرهم على بناتهم وعيالهم . . .

وعلى أية حال فإن الصوفية بلا شك أصحاب مجموعة هائلة من الفضائل ، ولا غرو ، فإن طريقهم الروحى يقوم أصلاً على مكارم الأخلاق ، وأساس هذا الطريق تأديب

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٤ .

النفس وتهذيبها ، وتصفية الروح وتطهيرها ، ولا يكون ذلك إلا برقة الحال ، وحلاوة الشمائل ، ومحبة الخير ، وحسن الخصال ...

فهم صادقون ، لا ينطق لسانهم إلا صدقاً ، ولا يخفق قلبهم إلا حقا ... ولهم مأثورات كثيرة فى الصدق ومعناه وجزاء الصادقين . . .

يقول الفضل بن عياض : « لم يتزيد الناس بشىء أفضل من الصدق وطلب الحلال . . » .

ويقول ذو النون المصرى : « الصدق سيف الله فى أرضه ما وضع على شىء إلا قطعه . . . »

ويقول أبو الحسين النيسابورى : « الصدق استقامة الطريقة فى الدين واتباع السنة فى الشرع . . . »

والصدق له أربعة جوانب ، فهناك كما يقول أبو على الثقفى : « صدق القول وصدق العمل وصدق المودة وصدق الأمانة ولا ينبغى أن تفارق أحد هذه الخلال الأربعة . . . »

ويقول أبو يعقوب النهرجورى : « الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية ، وحقيقة الصدق القول بالحق فى مواطن التهلكة . . . »

ورسم أبو سليمان الدارانى جزاء الصادقين فقال : « من كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته . . . »

ومن أخلاق الصوفية التواضع . . .

قال الفضل بن عياض : « التواضع أن تخضع للحق

وتنقاد له ، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه » .

وقال ذو النون المصرى : « من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو ، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، فإن النفوس كلها فقيرة عند هيبته . . . »

ومن جميل صفاتهم الصبر . . .

يقول أبو حفص النيسابورى : « الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين » .

ويقول : « من صبر على صبره فهو الصابر ، لا من صبر وشكا » .

ويقول أبوإسحاق الخواص : « من لم يصبر لم يظفر » .

ومن أخلاقهم الإخلاص . . .

وقد سئل أبو بكر الدقى عنه فقال : « أن يكون ظاهر الإنسان و باطنه وسكونه وحركاته خالصاً لله لا يشوبه حظ نفس ولا هوى ولا خلق ولا طمع . . . »

وقال : « من تكلم فى الإخلاص ولم يطالب نفسه بذلك ابتلاه الله بهتك ستره عند إخوانه . . . »

وهم يحترمون الصداقة ويجلون الأخوة ولهم فى ذلك أقوال كثيرة . . .

يقول سرى السقطى : « لا تصرم أخاك على ارتياب ولا تدعه دون الاستعتاب » . . .

ويقول بشر الحافى : « لا تكن كاملاً حتي يأمنك

عدوك ، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك ؟ » .

ولا يجب على الصديق أن يقابل إساءة صديقه بمثلها . . .

يقول أبو يزيد البسطامى : « إذا صحبك إنسان وأساء عشرتك فادخل عليه بحسن أخلاقك يطب عيشك ، وإذا أنعم عليك ، فابدأ بشكر الله عز وجل ، فإنه هو الذى عطف عليك القلوب ، وإذا ابتليت فأسرع الاستقالة فإنه القادر على كشفها دون سائر الخلق . . » .

ويقول رويم بن أحمد البغدادى : « الفتوة ، أن تعذر إخوانك فى زلاتهم ، ولا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه » .

وللصداقة شروطها وآدابها وبدون هذه الشروط والآداب لا تستقيم . . .

يقول أبو الحسن المزين : « صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم » .

وسئل الجنيد : من أصحب ؟ ، فقال : « من تقدر أن تطلعه على ما يعلمه الله منك ، ومن يقدر أن ينسى ما له ويقضى ما عليه . . . »

وقال أبو بكر الوراق : « لا تصحب من يمدحك بخلاف ما أنت عليه ، أو بغير ما فيك ، فإنه إذا غضب منك ذمك بما ليس فيك » .

ومن مستلزمات الصداقة ؟.. ، الود . . .

يقول حاتم الأصم : « أربعة يندمون على أربعة ، المقصر

إذا فاته العمل ، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة ، والممكن منه عدوه بسوء رأيه ، والجرىء على الذنوب » .

ومن مستلزماتها أيضاً . . . الإيثار . . .

يقول أبو حفص النيسابورى : « الإيثار أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك فى أمر آخرتك ودنياك » .

واجتماعات الأصدقاء لها آدابها وتقاليدها . . .

سئل الحلاج . . . ما الذى يجب على الإخوان إذا اجتمعوا ؟ فقال : التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، قال الله تعالى : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

والخل الوفى نعمة من الله يسبغها على عباده . . .

قال إبراهيم بن شيبان : « عوض الله المؤمنين فى الدنيا مما لهم فى الآخرة بشيئين ، عوضهم عن الجنة بالجلوس فى المساجد ، وعوضهم عن النظر إلى وجهه تعالى بالنظر إلى إخوانهم المؤمنين » .

وليس من شك فى أن القارئ قد وقف من خلال هذا الحديث على الكثير من أخلاق الصوفية ومذاهبهم الروحية الأخرى . . . وتعرف على شتى أحوالهم وأذواقهم . . . ولعله قد أكبر فى الصوفية نزعتهم الروحية الخالصة وبحثهم عن الحقيقة المطلقة ، مضحين بمتعة الجسم فى سبيل متعة الروح . سعداء بمجاهداتهم ورياضاتهم فى أوقات أقبل الناس فيها على الدنيا ، وألفوا حياة الدعة والرفاهية . . .

ولكنا نستطيع أن نقول مع هذا، إن التصوف بهذا المعنى لا يعدو أن يكون نوعاً من السلبية نحو المجتمع . . . وإنه يستطيع بشيء من التطوير أن يكون قوة دفع لا يستهان بها فى المجتمعات . . . فما أحوج الناس إلى إيمان الصوفية ونقاء أرواحهم ، ودقة إحساسهم . . . ما أحوجهم إلى الشعور بما يشعر به الصوفية من حب يسعون إليه ويضحون فى سبيله بكل شيء . . . إن هذه جميعاً هى الأسس التى يمكن أن يبنى عليها مجتمع قوى يؤمن بالسلام، والحرية ، والعدل ، والمساواة مجتمع نظيف ، لا تسيطر على أفراده عوامل الحقد والجشع والاستغلال . . . إن هذا هو سحر الروح الذى يعطى لكل تطور طعماً ومعنى ، ويقى البشرية ويلات الأنانية والتكالب على امتلاك القوة وإرهاب الآخرين بها . . . لأنه يمسح من القلوب ما خطته المدنية الجوفاء . . . فيمهد بذلك، طريقاً إلى السلام والمحبة والإخاء . . .

ألا ما أحوج البشرية إلى هذا التصوف البناء الخلاق . . . الذى يخرج من ظلمة الصومعة إلى نور المجتمع . . . فيناجى الله فى المصنع . . . وفى الحقل. . . ويتخذ من التقرب إلى الله ، وصفاء القلب ، ونقاء السريرة ، والإيمان العميق ، قوة دافعة نحو الإنتاج ، والعمل المثمر النظيف . . .

١٠

خاتمة

من مزايا القرن العشرين اتجاه الأذهان إلى معرفة الأسس التي يقوم عليها هذا المجتمع ،والرغبة فى الوقوف على الأسس التى قامت عليها المجتمعات الإنسانية منذ القدم، فقد دلت فى مجموعها على أن الجهد الإنسانى قد ثابر عمليًّا وكد فكريًّا فكانت النتيجة ظهور الابتكارات المستحدثة مما ترتب عليه انتعاش قوى وتجديد منتج قطع على الجدل طريقه فازداد التعمق فى استكناه فكرة الحقيقة وتحرى مالها من الأصول والعناصر .

ولسنا نبعد عن الصواب إن قلنا : إن مصدر الحياة فى كل شعب هو استشعار أصول الفضائل واستشعار الأخوة والتعاون بين الأفراد على البر والتناصح فى الخير والشر وهو نتيجة للروح الذى أودعه الله جميع الشرائع الإلهية من تصحيح العقيدة ،والحث على العمل على أساس من التفكير السليم وإسعاد المجتمع الذى لا يسعد مع شقاء أفراده .

لقد مرت على تعاليم الأديان حالات كثيرة سواء فى القرون الوسطى أو فى عهود الإصلاح كابدت فيه الكثير من التغييرات وأدى سوء تأويل بعض النصوص إلى القعود والتواكل

كما حدث ذلك فى المجتمع الإسلامى ، إذ نظر الصوفية إلى الدنيا نظرة عداء ، وأعرضوا عنها ، وعزفوا عن الكد والعمل .

ومما تناقلته الأجيال فيما بينها أن كل هذه الديانات قد بنيت على الأسس المتينة الصالحة التى كان من شأنها تطوير هذه النظرة بعد أن تنكب الكثيرون سبيل التعاليم الدينية وأفضى الانحراف عنها إلى التدهور فى إعلاء شأن العقل الإنسانى والحيلولة دون خوض المجتمعات غمار الحياة الحرة الرتيبة .

وفى ضوء هذه الملاحظات يمكننا أن نقول إن الصوفية فى الواقع ليست إلا بمثابة المواد الأولية التى تقوم عليها الحياة على أن تكون هذه المواد مرتكزة على فكرة الحقيقة والواقع وملتصقة بهما لأن الحقيقة بما فيها من نبل وقيمة وشرف هى وحدها التى ترتب مصالح المجتمع ، وتعين درجاتها أياً كانت هذه المصالح فردية أو عامة ، إذ لا شك فى أن الحقيقة هى التى تدفع إلى الكد فى البحث والتنقيب واستجلاء الفكرة الصالحة . أما المداورة التى تخفى هذه الحقيقة ، وتذهب إلى جحود فكرتها باتخاذ هذه النظرة الغريبة معقلا يعصم من قهر الواقع ، فليست إلا مفسدة للعقول والمدارك والأفهام . . .

ومما لا شك فيه أن الإيمان هو مصدر التطور فإذا سادت الصوفية ومشت مع الحقيقة والواقع جنباً إلى جنب وامتزجت بهما ولم تتجرد عنهما فإنها تكون نظرية صحيحة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولا تتعارض مع أصل من أصول

الدين، ذلك أن دوافع هذه المؤثرات القوية من شأنها أن تخلق للصوفية عهداً جديداً يقوم على التقارب بين الفكرتين وامتزاجهما امتزاجاً تتفاعلان بها فتؤثر كل منهما فى الأخرى لأن طبيعة الفكرتين مهما كانت مختلفة، فقد عمل الزمان عمله فى التقريب بينهما، مما يدفع إلى أن يسلك الصوفى طريقه فى الحياة العقلية والمادية جميعاً بعد أن ترتسم فى ذهنه صورة للحياة غير التى كان يحياها، وتتحرك نفسه تطلب الحرية للوصول إلى هذه الصورة الجديدة للمشاركة فى بناء المجتمع الإنسانى، على أن هذا التقارب بين الفكرتين ليس من واقعه إلا عملا بأحكام الدين، وإحياء للتعاليم الدينية إذ لا نزاع فى أن الفكرتين بامتزاجهما وتكميل الواحدة منهما صورة الأخرى، والتوفيق بين القيم الروحية العليا وبين تطور الحياة المادية، لمما يدفع بالشعوب إلى ميدان العمل والإنشاء والتجديد تحت ضوء هذه المثل العليا التى تصل ماضيها بحاضرها، ويحقق أكثر ما يكون من نفع بجهود هذا الجيل والأجيال المقبلة . .

وأول سؤال قد يتبادر للذهن عند ما نحاول درس موضوع الصوفية، هو البحث عن مالها من المعانى، وعن مداها القريب والبعيد . . . فقد دلت الصوفية منذ أقدم العصور على معان مختلفة، ولكنها مع ذلك متقاربة متجانسة، ثم تطورت هذه الكلمة بعض التطور فاستعملت بمعنى الثقافة الدينية التى عنى بها العرب المسلمون عناية خاصة ولا سيما بعد ما عمقت هذه الثقافة واشتد

تنوعها فى القرنين الثانى والثالث .. ومع ذلك فقد استعملت هذه الكلمة أثناء العصور الإسلامية الأولى فى معان أوسع من هذا المعنى وأشمل . . .

فقد قيل بأن المتصوف ليس بالإنسان الذى يتجه بكليته إلى تنمية روحه فحسب باعتكافه عن العالم ،وليس هو من يسلك سبيل التبتل والانقطاع منعزلا عن الدنيا ،ومن يحصر نفسه فى دائرة المعابد والكهوف ... إنما المتصوف ،هو من تنطق أحاسيسه بالوعى الاشتراكى الإنسانى الجماعى ،ومن يستند فى خطواته على تعاليم الدين،ويتخذ منها لنفسه منهجاً فى الحياة، وموقفاً إيجابياً فى المجتمع الذى يعيش فيه على أساس من قوى تفكيره وماله من الإرادة فى العمل والإنتاج متضامناً مع الأفراد الآخرين فى بناء هذا المجتمع عاملا على رفع شأنه حتى يكون متين الأساس، قوى الأركان . . .

وقد عبروا عن الصوفية بصور عدة.. فقالوا عنها بأنها النزعة الروحية الخالصة.. لأنها تستهدف تصفية الروح.. وتطهيرها ،وقالوا بأن طريقها يقوم على الأخلاق.. ويستند إلى تأديب النفس، وحب الخير ،قوامها الصبر والخضوع للحق — ولكن مما لا شك فيه أن تصوير الصوفية بأنها البحث عن الحقيقة المطلقة وتضحية متعة الجسم فى سبيل متعة الروح قد يكون تعبيراً أبلغ دلالة وأبعد مدى لما فيه من كثرة التصوير .. فهو ينبئ بأنها قوة كامنة للنهوض والعمل والكفاح .. وأن من شأنها أن تخلق الوعى

والإيمان فى الفرد بما يطبعه فيه الدين من المبادئ القويمة والأخلاق الكريمة التى تدفع فى نفسه العواطف القوية للمساهمة فى بناء المجتمع لأن الفرد، بما التهب به فؤاده من غيرة على الحق، أصبح أكثر قوة وأشد عزماً من غيره على أن يأخذ دوره فى المجتمع .. وأن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم .

ومهما يكن من شىء فإن القوة الروحية التى هى طريق المحبة وطريق العمل ما هى إلا محرك قوى يدب روح الحركة فى قلوب الذين يتبعونها بقدر ما يكون قد رسخ فى نفوسهم من روح الإيمان والتأثير الروحى .. فالتفاعل .. هو الذى يصنع الحياة الروحية ويضمن لقوة هذا الدفع الروحى النمو والزحف والاستمرار . . .

ومن أراد أن يحكم على الصوفية ومبادئها، وروح تعاليمهما على أساس من التقارب والامتزاج بين الفكرتين .. فليطالع آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية فكلها تتجه إلى بناء الفرد على أساس إنسانى .. وعلى أساس عادل من تطبيق العدالة الاجتماعية الحقيقية .. وكلها تحث وتوصى بأن التربية الروحية أول طريقها المحبة، ونهايته العمل الذى يوصل الفرد إلى أهدافه والارتفاع بمستوي معيشته، وتوفير الرفاهية للجميع على أساس أن الحياة الاجتماعية دائمة التقدم، وأن كل نظام فى الدنيا مقدر له أن يتقدم .. وأن يكون فى حالة تجدد مستمر متواصل .. ولا سبيل إلى ذلك بمجرد العمل الآلى، بل لا بد من روح مؤمنة بالهدف وبالنظام معاً . .

إن جوهر الصوفية وما فيها من الحقائق الروحية جدير بالاعتبار لأنها أثرت فى حياة الناس تأثيراً شديداً حتى إنها احتفظت بالمبادئ التى نشأت عليها، وتوسعت فيها ردحاً من الزمن رغم أنها لم تستطع أن تواجه الحياة بالنظرة الواقعية، ولم تستطع أن تواجه الناس بالتساؤل عن علة وجود هذا الكون.. وعن مكان الفرد فيه، ما مهمته ؟ وما الواجب عليه أن يعمل فيه ؟ . ذلك أن الصوفية ظلت فى دائرة التجريد ولم تحاول أن تصبغ نفسها بصبغة الشمول والعموم .. كما أنها لم تطلق للعقل الإنسانى والعواطف الإنسانية العنان لتخرج من عقالها، ولكنها أخذت ببعض الأصول وتركت البعض الآخر، حتى إنها وهى فى سبيل المعرفة قد ضلت الطريق . . .

ومما يؤخذ على الصوفية أن الطريقة التى اهتدت إليها ليست طريقة العلماء .. فهى لم تكلف نفسها وهى فى سبيل المعرفة عناء الرجوع إلى العلوم واستفتائها ومعاناة البحث عن مغزى للحياة والوصول منها إلى النتائج . . .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة لنقول إنه كان واجباً على الصوفية وحريًّا بها أن ترجع إلى الدين والفلسفة والتاريخ والاقتصاد لتقف على ما تمخضت عنه العلوم والمعارف، ولتلمس فيها المعانى الإنسانية التى تكمن وراء الدين.. إذ لا شك فى أن وراء هذه المعانى، تقوم حياة الناس بكل ما تحويه من خير وشر، وخطأ وصواب، لذلك كان واجب الصوفية أن تأخذ بنصيبها

فى بنيان هذا العالم ولكنها مع قصر نظرتها للحياة عجزت عن أى تفسير لهذه الحياة وعن مفهوم انطباعاتها الجديدة فظل إيمانها فى نظر العلم سطحيا لم يعمق العمق الكافى..لأنه ظل خلواً من الشجاعة الكافية، والإيمان بأن الإقناع وأسلوب الحجة هما من الوسائل الفعالة فى نشر المبادئ، وأنه بداية الانطلاق للمستقبل المنشود . :

ولسنا ننكر أن استمالة العواطف إلى رأى من الآراء كما يقرر علماء النفس لا تكون إلا بعد الإقتاع به، والإقناع، أداة الدعوة إلى الرأى والعقيدة، وركن من أركان الحياة الاجتماعية فى كل عصر وفى كل أمة .

وقد استقر فى أذهان الناس منذ العصور الأولى آراء خاطئة، ومعتقدات فاسدة، فيما يتعلق بالمفهوم من الصوفية : ماهى، وما خصائصها ؟ وما غايتها ؟ .

وقد استولت هذه الآراء على العقول فنشأ عن ذلك أن تعرضت المجتمعات للأزمات والنكبات التى سلبتها عز الحياة والسلطان بما كان يذهب إليه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين حتى لا يفهموا الكتب السماوية ويعرفوا الدين معرفة حقة، ويوهموهم بأن الدين صارف عن الدنيا، فيقعدوا عن العمل والكد والكفاح .

والواقع، أن التعاليم الدينية لا يمكن أن تقف عائقاً دون النهوض بالمجتمع، وتحقيق مصالحه على الوجه الذى يحقق الخير

العام..وما كانت تلك التعاليم لتقر الصوفيةعلى أن تعطل فى الفرد قوى التفكير والإرادة والعمل ، ولا أن يكون من شأنها أن تضعف فيه الهمة فيستكين ويستسلم للعجز..بل إن من شأن تلك التعاليم أنها تأبى كل الإباء أن تكون علاقة الفرد بالحياة على هذه الصورة من وهن العزيمة وضعف الإرادة ومن تسلط الأوهام والخرافات عليه بل إن تطور المجتمعات لا يكون إلا بالإيمان الذى يملأ النفوس قوة ، وينير للأفراد طريق المستقبل ، ويقوى فيهم الشعور بالمساواة والعدالة والتضامن القائم على المحبة فيحققون بهذا الفهم المستقيم الحرية والديموقراطية ، ويعملون متضامنين للخير العام . . .

تلك حقيقة من الحقائق الدينية التى لا ينكرها العقل تستقى أصولها من الكتب المقدسة.. وذلك الفهم السليم لا يفسده على الناس إلا الأوهام والتأويلات المنحرفة التى ترمى إلى حبس الروح فى دائرة التبتل والعبادة ، والاعتكاف عن العالم ..

إن هذا الفهم الفاسد يخلق جيلا مضطرباً قلقاً بين الجهاد الذى يفرضه الدين وتتطلبه الحياة ، وبين ما يتصورونه من أن التصوف لا يكون إلا بالانقطاع لله تعالى ، أو بعبارة أخرى يحارون بين التصور والواقع . . .

إن الدين هو قوام الحياة النفسية للشعوب ، والعبادة ليست إلا الحقيقة التى لا تقوم إلا على أساس من الاعتقاد بوجود الله... وتعمل بما فرضه والابتعاد عما نهى عنه ، وهى لا تستقيم بدون

هذه الحقيقة ، أما العزوف الذى تلتزم به الصوفية من الإحجام عن الكد والعمل ، والإصرار على البقاء فى الأبراج العاجية بعيداً عن واقع الحياة فى هذه الدائرة الضيقة .. فتلك أوهام تتخلل تلك الحقيقة ، وتسرى فى ثناياها بما يجرى من المظاهرات التى تقيمها الصوفية فيما درجت عليه من شتى الاحتفالات والاجتماعات.

وعلة ماساد هذا النظام وأقعده فى نطاق نأى به عن الكفاح والعمل ، والمساهمة فى بناء المجتمع ، ترجع إلى ما فطر عليه الإنسان من الميل إلى الأوهام .. وانسياقه وراء خياله الذى لا ينتهى به إلى الحقيقة . . .

والشعوب يتفاوت بعضها عن بعض فى هذا الشأن .. فمنها من يجنح إلى الحقيقة ، ومنها من تتسلط عليه الأوهام ، وتستأثر به ، ومنها ما يجمع ما بينهما بمقدار ما ، وهكذا نرى أن المتصوفة قد غضوا الطرف عن الحقائق وواقع الأمور ، وكان جديراً بهم أن يبحثوا عن الحقيقة .

وإذا نظرنا إلى الأديان نجد قيامها قد تأسس على التبتل وعبادة إله واحد .. وقد رأينا الشعوب القديمة كلها توحيدية كمصر وفينيقيا وآشور وغيرها ، ولم يلبث الخيال أن داعبها بالتغيير ، وتناولها بالتنويع حتى انتهت تلك الأديان إلى عبادة الأصنام ونبعت منها الطقوس التى تكتنفها الخرافات مما لا يقبله عقل أو يسلم به دين . . .

لقد قامت الديانة المسيحية على تعاليم معينة تأسست على التسامح والمحبة.. غير أن أتباع هذه الديانة ما لبثوا أن خلطوها بالطقوس الوثنية التى ذاعت من قبل وتوسعوا فى ذلك حتى أفسدوا المسيحية وألصقوا بها ما لا يمت إليها بنسب . وجاءت الثورة الدينية فى القرن السادس عشر ، وحاولت أن تخلص الدين مما علق به ، وتكشف للناس عبث العابثين بالشريعة السماوية . وطالب « لوثير » بالرجوع إلى الإنجيل وما حوى من مبادئ قويمة . . .

ومن الظواهر التاريخية الهامة قيام الدين الإسلامى فى شبه جزيرة العرب واعتناق العرب الإسلام والتوسع العربى الكبير منذ القرن السابع الميلادى .

فقد كانت الأمم على أثر ما انتابها من التصدع فى الأسس والتشوه فى الشكل تتطلع إلى الإصلاح الشامل وترى نفسها فى حاجة ماسة إلى البحث والتنقيب فى أصول ذلك الإصلاح .. فكانت رسالة النبى العربى ، رسالة عامة شاملة .

وإذا راجعنا أحوال البشرية ، ملكنا العجب .. إذ نرى أن الدين الإسلامى قد تمكن فى أقل من ثلاثين سنه من أن يجمع إليه الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها .. وأن يهيأ له أسباب الانتشار فى بلاد مترامية الأطراف فى أقصى الشرق وجوف أفريقيا ، كما تمكن الدين من أن يحتضن بعد ذلك الأمم الأخرى فيما بين المحيط الغربى وبين جدار الصين فى أقل من قرن واحد

وحدثت الفتوحات العربية الكبرى استجابة لعوامل الدين والاقتصاد والسياسة فكان لسيل الأفكار الحرة، ومبدأ المساواة أن يتغلغل بين هذه الشعوب ، وأتيح للإسلام أن يضم سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرف لها التاريخ مثيلا . . .

ولما ظهر الإسلام جاء مخاطباً العقل،ومستصرخاً للأفهام والألباب ..مقرراً لأصول الفضائل وقواعد النظام،وكان ظهوره للناس جميعاً عقيدة ونظاماً على أساس التوحيد فى عبارات تنم على البساطة والصراحة فكان دينًا عامًا شاملا أحاط بأمور الدين والدنيا معًا ، نشره ودعا إليه قوم آمنوا بربهم فحالفهم التوفيق فى تزكية النفوس وتطهيرها .. كما نجح الداعون فى إصلاح شئون المجتمع ،وانتهوا فى ذلك إلى حد لم يبلغه كبار المصلحين والفلاسفة .

وطالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وكفل الاستقلال لكل فرد فى عمله استقلالا فى الإرادة ، واستقلالا فى الرأى ،وحرية فى الفكر ، وأوسع المجال لتسابق الهمم فى السعى ودفع العزائم إلى العمل.. وحثها على السعى فى طلب الرزق. وكان نظامه فى الحياة الدنيا مؤسساً على دعائم : أهمها حرية الرأى والفكر والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات .

وما لبث أن دخل هذا الدين على مر العصور والأزمان ما ليس من الإسلام فى شىء لنتيجة إهمال الحقائق وإغفال المعانى السامية التى هى مصدر المجد والعزة ، فأدى ذلك إلى

التأخر ، وقام المصلحون يطالبون بفهم الدين فهما سليماً ليدرك الناس أن الإسلام كما يدعو إلى سمو الروح وصفاء النفس دعا إلى العمل لبناء المجتمع بناء قوياً سليماً .

وقد يكون من الأهمية فى هذه الخاتمة أن أؤكد ما سبق لى بيانه فى مستهل هذا الموضوع من أن البحث العلمى النزيه الذى يحتم الرجوع دواماً إلى الواقع والحقيقة هو المطلب الأول والأخير فيما ورد بين سطور هذا الكتاب ، وليس لى إلا الرجاء فى أن يخرج القارئ فى النهاية وقد شمله مثل هذا الشعور بعد أن تقيدت بهذا الوجوب والالتزام والحمد لله رب العالمين . . .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

مراجع الكتاب

١ ــ المنقذ من الضلال : الغزالى

٢ ــ إحياء علوم الدين : الغزالى

٣ ــ الرسالة اللدنية : الغزالى

٤ ــ الرسالة القشيرية : القشيرى

٥ ــ اللمع : السراج الطوسى

٦ ــ قوت القلوب : أبو طالب المكى

٧ ــ مقدمة ابن خلدون

٨ ــ طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى

٩ ــ دائرة المعارف الإسلامية : (الطبعة العربية)

١٠ ــ الصوفية فى الإسلام : نيكلسون ــ ترجمة نور الدين شريبة

١١ ــ التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق (جزءان) : الدكتور زكى مبارك

١٢ ــ الله : عباس محمود العقاد

١٣ ــ الحياة الروحية فى الإسلام : دكتور محمد مصطفى حلمى

١٤ ــ فى الفلسفة الإسلامية : دكتور إبراهيم مدكور

١٥ ــ منهج القرآن فى بناء المجتمع : الأستاذ محمود شلتوت

١٦ ــ بطل الأبطال : الأستاذ عبد الرحمن عزام

دار المعارف بمصر

تقدم إلى طلاب الثقافة وأهل الفكر والمعرفة هذه النفائس الفكرية في مكتبة الدراسات الفلسفية :

- تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط — للأستاذ يوسف كرم
- تاريخ الفلسفة الحديثة — » » »
- العقل والوجود — » » »
- الطبيعة وما بعد الطبيعة — » » »
- أصول الرياضيات (ثلاثة أجزاء) — لبرتراند رسل، ترجمة الدكتورين محمد مرسى أحمد وأحمد فؤاد الأهوانى
- القرآن والفلسفة — للدكتور محمد يوسف موسى
- الصلة بين الدين والفلسفة عند ابن رشد — للدكتور محمد يوسف موسى
- المنطق — لجون ديوى، ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود
- الإدراك الحسى عند ابن سيناء — للدكتور محمد عثمان نجاتى

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

ديسمبر ١٩٦١ — الثمن ٣٠ مليماً